الباب الثالث

زهد الخلفاء والعلماء وورعهم

١- عمر بن الخطاب .

٢- علي بن أبي طالب .

٣- عمر بن عبد العزيز .

٤- إبراهيم بن أدهم .

٥- عبد الله بن المبارك .

الفصل الأول

زهد عمر بن الخطاب وورعه (٢٣هـ)

وسنقتصر في هذا الباب من الكتاب على ثلاثة من الخلفاء ، وهم : عمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب من الصحابة ، وعمر بن عبد العزيز ممَّن بعدهم .

طعام عمر :

عن الأحنف بن قيس قال : كنا نشهد طعام عمر ﷺ فيومًا كان لحمًا غريضا ـ أي : طريًّا ـ ويومًا قديدًا ، ويومًا زيتًا .

وعن المِسْوَر بن مَخْرمة قال : أُتي عمر بمال فوضع في المسجد فخرج إليه يتصفَّح وينظر إليه ، فهملت عيناه! فقال له عبدالرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ما يبكيك فوالله إنَّ هذا لمن مواطن الشكر ! فقال عمر : إنَّ هذا والله ما أعطيه قوم قط إلا وقع بينهم العدوان والبغضاء[١]!

وكان أشدّ ما يكون على نفسه ، إذا نزلت بالمسلمين نازلة ، فهو أول مَن يتحمَّل نصيبه منها ، فعن أنس ﷺ قال : كان عمر يأكل الزيت عام الرمادة (المجاعة) وكان قد حرم على نفسه السمن ، وكان بطنه يقرقر ، فنقر بطنه بأصبعه ، وقال : قرقر أو لا تقرقر فليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس[٢].

تشديده على أهله :

وكان يُشدِّد على أهله لأنهم أسوة للناس ويقول لهم : إنَّ الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم[٣]، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : قدم على عمر مسك وعنبر من البحرين فقال عمر : والله لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لي

---

(١) الأثران رواهما أحمد في الزهد صـ ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤٨/١) .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٢١٨/٤ .

هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمر ابن نفيل : إنني جيدة الوزن ، فهلمَّ أزن لك . فقال : لا . فقالت : لم؟ قال : أخشى أن تأخذيه فتجعلينه هكذا ، فأدخل أصبعه في صدغيه وتمسحين به عنقك ؛ فأصيب فضلاً على المسلمين[1].

وكان عمر رضي الله عنه لا يعيب طعامًا ، فقال له غلامه يرفا أو أسلم : لأجعلنَّه حتى يعيبه ، فجعل لبنًا حامضًا ، ثم قرَّبه إليه ، قال : فأخذ منه فقطب ، ثم قال : ما أطيب هذا من رزق الله عز وجل !

ثياب عمر :

وعن قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبطأ على الناس يوم الجمعة ، ثم خرج فاعتذر إليهم في احتباسه ، وقال : إنما حبسني غسل ثوبي هذا ؛ كان يغسل ولم يكن لي ثوب غيره.

وعن الحسن : أنَّ عمر رضي الله عنه خطب الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[2].

وركب عمر دابة ، فرآها تُروث شعيرًا ، فقال : يأكل هكذا ، والمسلمون يموتون هزلاً ، لا أركبها حتى يحيا الناس.

كلمات في الورع والزهد لعمر :

قال رحمه الله تعالى :

(إنَّ الدين ليس بالطنطنة من آخر الليل ، ولكن الدين الورع).

وكتب عمر إلى أبي موسى الاشعري رضي الله عنه : (إنك لم تنل عمل الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا ، وإيَّاك ومذاق الأخلاق ودناءتها) . مذاق الأخلاق : اختلاط محمودها بمذمومها.

---

(١) رواه أحمد في الزهد صـ ١١٩ .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٣/١) .

وقال رحمه الله تعالى : (نظرت في هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أضررت بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة أضررت بالدنيا ، فإذا كان الأمر هكذا أضررت بالفانية)[1].

قال عمر : (عليكم بذكر الله فإنه شفاء ، وإيَّاكم وذكر الناس فإنه داءٌ)[2].

وقال رضي الله عنه : (التُّؤَدَة في كلِّ شيء خيرٌ إلا ما كان من أمر الآخرة)[3].

التزيُّن للزوجة :

ولم يكن يرى عمر من ضرورة الزهد ، ترك زينة الله التى أخرج لعباده والطيِّبات من الرزق ، بل أحيانًا تكون مطلوبة تتعلق بحق الغير ، كالزوجة .

جاءت امرأة إلى عمر بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يُحمَّ ، وأن تُقلَّم أظافره ، ويؤخذ من شعره ، ثم قال له ولمَن حوله في مجلسه : هكذا فاصنعوا لهنّ ، فوالله إنهنَّ ليحببن أن تتزيَّنوا لهنَّ ، كما تحبُّون أن يتزينَّ لكم .

وقال عمر : أحبُّ أن يكون الرجل في أهله كالصبي ، فإن احتيج إليه كان رجلاً[4].

إراحة المسلمين من تعبهم :

وكتب أبو عبيدة إلى عمر : أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية ، لطيب هوائها ، ووفرة خيراتها ، مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة ، فلا يُنتفع بهم بعدها في قتال . فأنكر عمر ذلك عليه وأجابه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح ، سلام عليك ، وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو؟ وأصلِّي على نبيه ، وأشكره على ما وهب من النصر للمسلمين ، وجعل العاقبة للمتقين ، ولم يزل بنا لطيفًا معينًا . وأما قولك : لم نقم بأنطاكية لطيبها .

---

(١) هذه الآثار رواها أحمد في الزهد صـ ١٢٣ ، ١٢٦ . .

(٢) رواه هنَّاد في الزهد (١١١٠) .

(٣) رواه أحمد في الزهد صـ ١١٩ .

(٤) ذكره ابن عبد الهادي الحنبلي المعروف بابن المبرد في محض الصواب (٦٧٤/٢) .

فإن الله عزَّ وجلَّ لم يُحرِّم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ (المؤمنون:٥١) ، وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٢) الآية ، فكان يجب عليك أن تُريح المسلمين من تعبهم ، وتَدَعَهم يرغدون في مطعمهم ، ويريحون أبدانهم من نَصَب القتال مع مَن كفر بالله[١].

معاملة عمر نفسه معاملةً خاصَّة :

وحَدث أنَّ حذيفة بن اليمان أقبل على الناس ، وبين أيديهم القصاع (وعادة يكون فيها الثريد واللحم) ، فدعاه عمر إلى الطعام ، وعنده خبز غليظ وزيت ، فقال حذيفة : أمنعتني أن آكل الخبز واللحم ، ودعوتني على هذا؟ قال : إنما دعوتُك على طعامي ، فأما ذاك فطعام المسلمين[٢].

فعمر لا يريدها رهبانية ، ولا يُحرِّم ما أحلَّ الله من طيبات ، وإنما يعامل نفسه فقط معاملة خاصَّة .

فهو - **أولاً** - ينفق من بيت المال ، وهو أمين عليه ، وكيل عن المسلمين في رعايته ، فلا غرو أن يتحرَّج غاية التحرُّج من الأكل من هذا المال ، وحسبه أن يقتصر على الكفاف ويقتصد ، بل يتقشَّف ما استطاع . وقد قال : ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم : إن استغنيتُ استعففتُ ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت[٣].

ثم هو - **ثانيًا** - خليفة يريد أن يكون قدوةً لأمرائه وولاته ، فلا يطمع أحد منهم في تكوين ثروة ، وهو يرى أمير المؤمنين يعيش عيشة الكفاف أو دون الكفاف .

---

(١) فتوح البلدان (١/٢٥٤) .

(٢) رواه أحمد في الزهد صـ ١٢١ .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في السير (٣٣٥٨٥) .

وقد كان يقول لأهله وأبنائه : إنَّ الناس ينظرون إليكم ، نظر الطير إلى اللحم[1].

ثم هو ـ **ثالثًا** ـ يريد أن يكون أُسوة لفقراء المسلمين ، حتى لا تنكسر قلوبهم ، ولا يشتد عليهم بؤسهم .

ولم يكن يطلب من ولاته أن يقتدوا به في مثل ما هو فيه ، وما كان يطلب منهم إلا البعد عن الإسراف ، كالبعد عن التقتير .

الشعور بضخامة المسؤولية :

أنكر على عامله باليمن حُللاً مشتهرة ودهونًا . فعاد إليه العام الذي يليه أشعث مغبرًا عليه أطلاس ، فقال : لا ، ولا هكذا . . . إنَّ عاملنا ليس بالشعث ولا العاني ، فكلوا واشربوا وادَّهنوا ، إنكم ستعلمون الذي أكره من أمركم[2].

إنَّ هناك أمرًا آخر ، هو قوَّة الشعور بضخامة المسؤولية !

إننا نرى الطالب الطموح إذا زحفت عليه أيام الامتحان السنوي ، وأحسَّ بشبحه يقترب منه ، انهمك في تحصيل معارفه ، واستذكار دروسه ، انهماكًا قد ينسيه نفسه وطعامه وشرابه ، بل ينسيه نومه وراحته إلا قليلاً . . . يسوقه إلى ذلك رغبة عارمة في النجاح بدرجة عالية ، وخوف من الإخفاق في الحصول على ما يريد ، وفضيحة الرسوب أو انخفاض الدرجة بين الأهل والإخوان .

فكيف بقلوب كبيرة أحسَّ أصحابها بهول امتحان الآخرة ، ودقَّة الحساب أمام الله ، وكثرة الخصوم الذين يسألون عنهم؟ « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته »[3].

ألا يكون ذلك مدعاة لأرباب تلك المسؤوليات الجسام أن يُشغلوا عن أنفسهم وحظوظها ، بأمتهم وحقوقها ، وبالآخرة وحسابها؟!

---

(١) تقدم عزوه إلى تاريخ بغداد (٤/٢١٨) .

(٢) انظر : الفائق في غريب الحديث ، للزمخشري (٢/٢٧١) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الجمعة (٨٩٣) ، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩) ، كما رواه أحمد (٤٤٩٥) ، وأبو داود في الخراج (٢٩٢٨) ، والترمذي في الجهاد (١٧٠٥) ، عن ابن عمر .

ذلك ما نحسُّه ونلمسه في سيرة أولئك الراشدين المهديين من الخلفاء .

نلمسه في قول ابن الخطاب : لو عثرت بغلة في العراق ، لخفت أن أسأل : لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق ، يا عمر؟

وقد لمست ذلك امرأة خطبها عمر لنفسه ، فقالت وصَدَقت : ذاك رجل أذهل أمر آخرته عن أمر دنياه ، حتى كأنه يرى ربه بعينه[1].

* * *

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٧٧) ، وسكت عنه هو والذهبي ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٠/١٩٨) .

الفصل الثاني

زهد عليّ بن أبي طالب وورعه (٤٠هـ)

تضييقه على نفسه وتوسعته على غيره :

أعطى عليٌّ الناس في سنة ثلاث عطيات ، ثم قدم عليه مال من أصبهان فقال : هلّموا إلى العطاء الرابع فخذوا ، ثم كنس بيت المال وصلّى فيه ركعتين ، وقال : يا دنيا غرّي غيري[١] .

وكان لعلي رضي الله عنه امرأتان ، كان إذا كان يوم هذه اشترى لحمًا بنصف درهم ، وإذا كان يوم هذه اشترى لحمًا بنصف درهم[٢] .

وعن يزيد بن محجن قال : كنا مع علي رضي الله عنه ، فدعا بسيف فسلَّه فقال : مَن يشتري هذا؟ فوالله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته[٣] .

ولم يكن فقيرًا ، ولكنه كان ينفق ويجود على أهل الحاجة ولا يبخل . ولقد حدثهم عن نفسه فقال : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع ، وإنَّ صدقتي اليوم لأربعون ألفًا[٤] .

واشترى يومًا تمرًا بدرهم ، فحمله في ملحفته ، فقالوا : نحمل عنك يا أمير المؤمنين ، فقال : لا ، أبو العيال أحقُّ أن يحمل[٥] .

---

(١) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٨٨٦) .

(٢) المصدر السابق (٨٨٩) .

(٣) المصدر السابق (٨٩٧) .

(٤) رواه أحمد (١٣٦٧) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف لانقطاعه . وقال الهيثمي في المجمع (١٦٤/٩) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير شريك النخعي وهو حسن الحديث ، ولكن اختلف في سماع محمد بن كعب القرظي من عليّ ، والله أعلم .

(٥) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٩١٦) .

ولكنه ﷺ لم يحب من ولاته وكبار الموظفين في دولته أن يشدِّدوا على أنفسهم فيحرموها من الطيبات ، اقتداءً به .

موقفه من زهد عاصم بن زياد :

مرض الربيع بن زياد الحارثي ، فذهب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يعوده ، وكان فيما قاله له الربيع : يا أمير المؤمنين ألا أشكو إليك عاصم بن زياد؟ قال : وماله؟ قال : لبس العباء ، وترك الملاء ، ورغم أهله ، وأحزن ولده . قال : عليَّ عاصمًا . فلما أتاه عبس بوجهه ، وقال : ويلك يا عاصم ، أترى الله أباح لك اللذات ، وهو يكره أخذك منها ؟! لأنت أهون على الله من ذلك ! أو ما سمعتَه يقول : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن:١٩-٢٢)، وقوله : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (فاطر:١٢).

أما والله أن أبتذل نعم الله بالفعال ، أحبُّ إليه من ابتذالها بالمقال ، وقد سمعتَه يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:١١) ، ويقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف:٣٢) . وأن الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ (البقرة:١٧٢)، وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (المؤمنون:٥١).

فقال عاصم : فعلام اقتصرتَ أنت ـ يا أمير المؤمنين ـ على لبس الخشن ، وأكل الجشب[1]؟! قال : إنَّ الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام ؛ لئلا يشنع على الفقير فقره . قال : فما برح حتى لبس الملاء ، ونبذ العباء[2].

---

(١) الطعام الردىء .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/٣٧٣ ، ٣٧٤) .

الولاة أسوة للناس :

فهو هنا يرى أنَّ أئمة الناس أي : خلفاؤهم ومَنْ ولاهم الله المسؤولية عنهم ، ينبغي أن يكونوا أسوة للناس ، وبخاصّة الفقراء أو الضعفاء منهم ، فلهذا لا يحسن أن يأكلوا من الأطعمة أطيبها ، وأن يلبسوا من الثياب أجملها ، حتى يهون على الفقير فقره إذا نظر إليهم ورأى ما هم فيه .

شهادة معاوية وعمر بن عبد العزيز والحسن البصري :

روى أبو نعيم في (الحلية) ، دخل ضرار بن ضَمرة الكتاني على معاوية ، فقال له : صِف لي عليًّا . فقال : أو تعفيني ، يا أمير المؤمنين؟ قال : لا أعفيك . قال : أما إذ لا بد ، فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القُوى ، يقول فَصْلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجَّر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته .

كان والله غزير العَبرة ، طويل الفكرة ، يُقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصُر ، ومن الطعام ما جشُب ، كان والله كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، وكان ـ مع تقرُّبه إلينا وقربه منا ـ لا نكلمه هيبة له ؛ فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ! يُعظِّم أهل الدين ، ويُحبُّ المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيتُه في بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ـ يميل في محرابه ، قابضًا على لحيته ، يتململ تَمَلْمل السليم ـ أي الملدوغ ـ ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا ، يا ربنا ـ يتضرَّع إليه ـ ثم يقول للدنيا : أَلِي تغررت ، أم إليَّ تشوَّفت ؟ هيهات هيهات ، غُرِّي غيري ، قد بَتَتُّك ثلاثًا ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك يسير! آه آه من قلَّة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق!

فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وجعل يُنَشِّفها بكُمِّه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ، فقال : كذا كان أبو الحسن رحمه الله . كيف وَجْدُك عليه ، يا ضرار؟ قال : وجدُ من ذُبح واحدُها في حِجْرها ؛ لا ترقأ دمعتها ، ولا يسكن حزنها! ثم قام فخرج[1] .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/٨٤، ٨٥) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/١/٤٠١، ٤٠٢) .

وعن الحسن بن صالح قال : تذاكروا الزهَّاد عند عمر بن عبد العزيز ، فقال قائلون : فلان . وقال قائلون : فلان . فقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب[1].

وقال هشام بن حسَّان : بينا نحن عند الحسن البصري ، إذ أقبل رجل من الأزارقة (من الخوارج خصوم علي) فقال : يا أبا سعيد ، ما تقول في عليّ بن أبي طالب ؟ قال : فاحمرَّت وجنتا الحسن ، وقال : رحم الله عليًّا ، إنَّ عليًّا كان سهمًا لله صائبًا في أعدائه ، وكان في مَحَلة العلم أشرفها وأقربها من رسول الله ﷺ ، وكان ربَّاني هذه الأمة ، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقة ، ولا في أمر الله بالنَّئومة ، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه ، فكان منه في رياض مُونِقَة ، وأعلام بيِّنة ، ذاك علي ابن أبي طالب ، يا لُكَع[2].

من أقوال وأفعال عليٍّ في الزهد :

أورد ابن كثير في (البداية والنهاية)[3]، عن عبد بن حُميد بسنده ، عن أبي مطر قال : خرجت من المسجد ، فإذا رجل ينادي من خلفي : ارفع إزارك ؛ فإنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك ، وخُذ من رأسك إن كنتَ مسلمًا . فمشيتُ خلفه وهو بين يدي مُؤْتزر بإزار ومُرتدٍ برداء ، ومعه الدِّرَّة كأنه أعرابيٌّ بدوي ، فقلتُ : من هذا؟ فقال لي رجل : أراك غريبًا بهذا البلد! فقلت : أجل ، أنا رجل من أهل البصرة . فقال : هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين .

حتى انتهى إلى دار بني أبي مُعَيط ، وهي سوق الإبل ، فقال : بيعوا ولا تحلفوا ؛ فإنَّ اليمين تُنَفِّق ـ تُرَوِّج ـ السلعة ، وتَمْحَق البركة . ثم أتى أصحاب التمر ، فإذا خادم تبكي ، فقال : ما يبكيك؟ فقالت : باعني هذا الرجل تمرًا بدرهم فردَّه موالي ، فأبى أن يقبله . فقال له عليٌّ : خُذ تمرك وأعطها درهمها ؛ فإنها ليس لها أمر . فدفعه . (أي لم يبال بقوله) فقلتُ : أتدري من هذا؟ فقال : لا . فقلتُ : هذا

---

(١) تاريخ دمشق (٤٢/٤٨٩) .

(٢) تاريخ دمشق (٤٢/٤٩٠) .

(٣) البداية والنهاية (١١/١٠٦) وما بعدها ، طبعة هجر .

على بن أبي طالب أمير المؤمنين! فصَبَّتْ تمره وأعطاها دراهمها . ثم قال الرجل : أحبُّ أن ترضى عني ، يا أمير المؤمنين . قال : ما أرضاني عنك إذا أوفيتَ الناس حقوقهم !

ثم مرَّ مجتازًا بأصحاب التمر فقال : يا أصحاب التمر ، أطعموا المساكين يَرْبُ كسبكم .

ثم مرَّ مجتازا ومعه المسلمون ، حتى انتهى إلى أصحاب السَّمك فقال : لا يباع في سوقنا طافٍ . (لأن الطافي مات قبل أن يُصاد ، فربما يكون مات بآفة أو مادة سامَّة أو غير ذلك).

ثم أتى دار فُرات ، وهي : سوق الكرابيس (الثياب) فأتى شيخًا ، فقال : يا شيخ ، أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم . فلما عرَفه لم يشترِ منه شيئًا ، ثم آخر ، فلما عرَفه لم يشترِ منه شيئًا ، فأتى غلامًا حَدَثًا ، فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ، وكُمُّه ما بين الرسغين إلى الكفين يقول في لُبْسه : «الحمد لله الذي رزقني من الرِّياش ما أتجمَّل به في الناس ، وأُواري به عورتي» . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، هذا شيء ترويه عن نفسك ، أو شيء سمعتَه من رسول الله ﷺ؟ فقال : لا ، بل شيء سمعتُه من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة[1] . فجاء أبو الغلام صاحب الثوب فقيل له : يا فلان ، قد باع ابنك اليوم من أمير المؤمنين قميصًا بثلاثة دراهم . قال : أفلا أخذت منه درهمين ؟ فأخذ منه أبوه درهمًا ، ثم جاء به إلى أمير المؤمنين ، وهو جالس مع المسلمين على باب الرَّحبة ، فقال : أمسك هذا الدرهم . فقال : ما شأن هذا الدرهم؟ فقال : كان قميصًا ثُمِّن درهمين . فقال : باعني رِضاي وأخذ رِضاه[2].

وروى البغوي عن صالح بيَّاع الأكسية ، عن جدَّته قالت : رأيتُ عليًّا اشترى تمرًا بدرهم ، فحمله في ملحفته ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، ألا نحمله عنك ؟ فقال : أبو العيال أحقُّ بحمله[3].

---

(١) رواه أحمد (١٣٥٣) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف .

(٢) رواه عبد بن حميد (٩٦) ، وأبو يعلى (٢٥٣/١) .

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨٩/٤٢) من طريق البغوي .

وعن زاذان قال : كان عليٌّ يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة ، يرشد الضالَّ ، ويُعين الضعيف ، ويمرُّ بالبَيَّاع والبقَّال ، فيفتح عليه القرآن ، ويقرأ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (القصص:٨٣) ، ثم يقول : نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس[١].

قال ابن كثير في (البداية) ومن كلامِه الحَسَنِ ، ما رواه ابن أبي الدنيا عن أبي أراكة يقول : صلَّيتُ مع عليٍّ صلاة الفجر ، فلما انفتل عن يمينه مكث كأنَّ عليه كآبة ، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قِيدَ رمح صلَّى ركعتين ، ثم قلب يده ، فقال : والله لقد رأيتُ أصحابَ محمد ﷺ ، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون صُفْرًا شُعثًا غُبْرًا ، بين أعينهم كأمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سُجَّدًا وقيامًا ، يتلون كتاب الله ، يُراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم ، والله لكأنَّ القوم باتوا غافلين . ثم نهض فما رُئيَ بعد ذلك مُفْترًّا يضحك ، حتى قتله ابن ملجم عدو الله الفاسق[٢].

أئمة الهدى ومصابيح العلم :

وعن علي بن أبي طالب أنه قال : تعلَّموا العلم تُعْرَفوا به ، واعملوا تكونوا من أهله ، فإنه يأتي من بعدكم زمان ينكر فيه من الحقِّ تسعة أعشاره ، وإنه لا ينجو منه إلا كلُّ أوَّاب منيب ، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم ، ليسوا بالعجل المَذاييع ـ الذين يذيعون الأسرار والفواحش ـ البُذر ـ الذين يمشون في الأرض بالنميمة والشرِّ ـ .

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٤٨٩) .

(٢) المصدر السابق (٤٢/٤٩٢) من طريق ابن أبي الدنيا .

أوصاف الزاهدين في الدنيا :

ثم قال : إنَّ الدنيا قد ارتحلت مُدبرة ، وإنَّ الآخرة قد أتت مقبلة ، ولكلٍّ واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا وإن الزاهدين في الدنيا اتَّخذوا الأرض بساطًا ، والتراب فراشًا ، والماء طيبًا ، ألا مَن اشتاق إلى الآخرة سَلاَ عن الشهوات ، ومَن أشفق من النار رجع عن الحُرُمات ، ومَن طلب الجنة سارع إلى الطاعات ، ومَن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات . ألا إنَّ لله عبادًا كمَن رأى أهل الجنة في الجنة مُخلَّدين ، وأهل النار في النار معذَّبين ، شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا أياما قليلة لعُقبى راحة طويلة ، أما الليل فصافُّون أقدامهم ، تجري دموعهم على خُدودهم ، يَجأَرون إلى ربهم : ربنا ربنا . يطلبون فِكاك رقابهم ، وأما النهار فظماء حلماء ، بَرَرة أتقياء ، كأنهم القِداح ، ينظر إليهم الناظر فيقول : مرضَى . وما بالقوم مِن مرض ، وخُولِطوا . ولقد خالط القوم أمر عظيم[1] .

وخطب عليٌّ فقال : أما بعد ، فإنَّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإنَّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطِّلاع ، وإنَّ المضمار اليوم ، وغدا السباق ، ألا وإنكم في أيام أَمَل من ورائه أَجَل ، فمَن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خُيِّب عمله ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإنّي لم أرَ كالجنة نام طالبُها ، ولم أرَ كالنار نام هاربها ، ألا وإنه مَن لم ينفعه الحقُّ ضرَّه الباطل ، ومَن لم يستقم به الهدى حار به الضلال ، ألا وإنكم قد أُمرتم بالظعن (السفر) ، ودُللتم على الزاد ، ألا أيها الناس ، إنما الدنيا عَرَض حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ، وإنَّ الآخرة وعد صادق ، يحكم فيها مَلِك قادر ، ألا إنَّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم .

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٤٩٣) .

أيها الناس ، أحسنوا في عُمركم تُحفظوا في عَقِبكم ، فإنَّ الله وعد جنَّته مَن أطاعه ، وأوعد ناره مَنْ عصاه ، إنها نار لا يَهْدأ زفيرها ، ولا يُفَكُّ أسِيرها ، ولا يُجبر كَسِيرها ، حرُّها شديد ، وقعرها بعيد ، وماؤها صديد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل .

وفي رواية : فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحقِّ ، وإنَّ طول الأمل يُنسي الآخرة[1].

* * *

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٤٩٧) .

الفصل الثالث

زهد عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ)

انشغاله بمسؤولية الخلافة عما يُحبّ :

ذكر ابن عساكر في تاريخه ، أنَّ عمر بن عبد العزيز كان يُعجبه جارية من جوارى زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، وكان قد سألها إيـَّاها بيعًا أو هبةً ، فكانت تأبى عليه ذلك ، فلما ولي الخلافة ألبستها وطيَّبتها وأهدتها إليه ، ووهبتها له . فلما أخلتها به أعرض عنها ، فتعرضت له فصدف عنها ، فقالت لـه : ياسـيـدى ، فأيـن ما كان يظهر لى من محبَّتك إياي؟ فقال : والله إن محبتك لباقية كما هـي ، ولكـن لا حاجة لي في النساء ، فقد جاءني ما يشغلني عنك وعن غيرك[١]!!

عِظَم مسؤولية الحاكم :

ودخلت زوجته يومًا عليه ، وهو جالس في مصلاَّه ، واضعًا خدَّه على يده ، ودموعه تسيل على خدَّيه ، فقالت : ما لك؟! قال : ويحك يا فاطمة! قد وُلِّيتُ من أمر هذه الأمة ما وُلِّيتُ ، فتفكَّرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب المأسور ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، وعلمتُ أن ربِّي عزَّ وجلَّ سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم (أي المحامي عنهم) محمد ﷺ ، فخشيتُ ألا يثبت لي حُجَّة عند خصومته . . فرحمتُ نفسي ، فبكيتُ[٢]!!

---

(١) البداية والنهاية (١٢/٦٩٦) .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/١٩٦،١٩٧) .

وقال مقاتل بن حيَّان : صلَّيتُ وراء عمر بن عبد العزيز ، فقرأ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (الصافات:٢٤) ، فجعل يُكرِّرها ، وما يستطيع أن يَتجاوزها . وما ذلك إلا لأنَّ الآية تذكِّره بالوقوف أمام الله ، والمسؤولية بين يديه .

إحساسُه بواجبه وخشيته لربه :

وقالت فاطمة امرأته ، تصف إحساسه بواجبه وخشيته لربِّه : ما رأينا أحدًا أشدَّ فَرَقًا من ربِّه منه ، كان يُصلِّي العشاء ، ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه . قالت : ولقد كان يكون معي في الفراش ، فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ، فأخرج عليه اللحاف رحمة له ، وأنا أقول : يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بُعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سرورًا منذ دخلنا فيها[1]!

زهده في اللباس :

وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جدًّا ، فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه . فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ، ولا يغسله حتى يتَّسخ جدًّا ، ويقول : ما أحسنه لولا لينه[2]!

الخلافة ومسؤوليتها ـ إذن ـ هي التي أذهلته عن النساء واللباس والمتاع والنعيم.

الأمة طالبةٌ له مطلوبةٌ منه :

قال له زياد العبدي مرة : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن رجل له خصم ألدّ ما حاله ؟ قال : سيئ الحال . قال : فإن كان خصمين ألدَّين ؟ قال : أسوأ حالاً . قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : ذاك حسبت لا يهنئه عيش . قال : فوالله ـ يا أمير المؤمنين ـ ما أحد من أمة محمد ﷺ ، إلا وهو خصمك . أي : طالب حقه منك .

قال زياد : فبكى عمر ، حتى تمنَّيت أني لم أكن حدَّثته ذلك[3].

أيُّ مسؤولية هذه ؟ الأمة كلها طالبة له ، مطلوبة منه !

* * *

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٧٠٥/١٢) . ط . هجر ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

(٢) المصدر السابق (٧١٢/١٢) .

(٣) انظر : البداية والنهاية (٢٤٤/٩) ، ط . إحياء دار التراث . ولم أجده في طبعة هجر .

ابن أدهم وابن المبارك

ونختار بعد الخلفاء شخصيتين زاهدتين من الزهَّاد الأوائل ، أعني قبل أن تدخل المؤثِّرات الثقافية الأجنبية في حياة المسلمين ، فتؤثِّر في تفكيرهم وفي سلوكهم ، ولذا أخذنا هذين النموذجين من النماذج التي نعتبرها نماذج إسلامية خالصة ، ممن نعتدُّهم من تلاميذ (مدرسة الإسلام) التي أُسِّست على تعاليم القرآن الكريم ، والسنة النبوية . قبل ظهور التصوف وتأثره بقوة في المجتمعات الإسلامية .

هذان النموذجان هما : إبراهيم بن أدهم ت ١٦١هـ ، وعبد الله بن المبارك ت ١٨١هـ .

أولهما : أقرب إلى العزلة والنُّسك ، والرغبة في الخمول والبعد عن الناس . وإن لم يعتزل الناس تمامًا .

والثاني : أقرب إلى الاختلاط بالناس في العلم والتعليم والجهاد وعمل الخير .

وكلاهما خرج من خراسان ، وإن كان أوَّلهما عربي الأصل ، والثاني : تركي الأصل . وقد استقرَّ الأول في بلاد الشام . وسنخصُّ كلاً منهما بحديث يليق به ، ويُجلِّي صورته وسيرته .

* * *

الفصل الرابع

إبراهيم بن أدهم (١٦٢هـ)

معالم زهد ابن أدهم :

قال عنه مؤرِّخ الإسلام الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» : القدوة الإمام العارف ، سيد الزهَّاد .

ولد في مكة المكرمة حوالي سنة مائة من الهجرة ، وكان أبوه أدهم رجلاً صالحًا ، فرفعه في خرقة ، وكان يمرُّ به على العلماء والعبَّاد والصَّالحين المجاورين في مكة ، يلتمس دعاءهم له ، ولا ريب أنَّ منهم مَن كانت دعوته مستجابة ، فنالته بركة هذا الدعاء .

كان إبراهيم بن أدهم من أبناء الملوك ، ولكنه حين أدركته الهداية الإلهية ، ترك أُبَّهة الملك ، وسلطان الإمارة ، ورَغَد العيش ، وحياة النعيم في بلخ بأفغانستان ، ليعيشَ حياةَ الورع والزهد في الدنيا في ديار الهجرة ، أو قُل : حياة التعب والكدح والعَرَق .

عزمه على تغيير منهج حياته :

قالوا : إنه جاءته هذه الصحوة وهو في رحلة صيد ، فلما صمَّم على أن يغيِّر منهج حياته ويتَّخذ طريق الصالحين ، نزل عن فرسه وصادف راعيًا لأبيه ، فأخذ منه لباس الراعي ، وأعطاه لباسه الأميري ، وأعطاه فرسه وما معه من ثياب ورياش ، ودخل البادية ، ثم دخل مكة ، وانتهى إلى الشام .

من حياة الرغد إلى حياة العمال الكادحين :

إن هذه اليقظة الربانية التي أدركته ، غيَّرته تغييرا كليًّا من رأسه إلى قدمه ، وأنشأته خلقا آخر ، وجعلت من الأمير ابن الأمير ، سليل الملوك ، وربيب القصور ،

والذي ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ، ونشأ وهو يرفل في الحرير والديباج ، وبين يديه الخَدَم والحَشَم ، وحوله الحُرَّاس والأتباع ، يرفض هذه الحياة الرغيدة الناعمَة ، ويطلِّقها ثلاثًا لا رجعة فيها ، ليدخل في حياة جديدة ، لا تعتمد على نسب ولا حسب ، ولا تستند إلى مال ولا جاه ، بل حياة العمال الكادحين ، ممَّن يكسب لقمة عيشة بكدِّ يمينه ، وعرق جبينه ، متحرِّيًا أن تكون من الحلال البيِّن ، بعيدًا عن أيِّ شبهة ، ولو من بعيد ، « فمَن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه »[1].

من كبار الزاهدين الأوائل :

لا يشكُّ باحث ـ مسلم أو غير مسلم ـ أنَّ إبراهيم بن أدهم ، كان من كبار الزاهدين ، الذين باعوا دنياهم بأخراهم ، وتركوا شهواتهم مرضاةً لربهم ، ولم يركضوا وراء ما يركض وراءه عامة الناس من حُبِّ الشهوات من النساء ، والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة من الأنعام والحرث ، بل كانت هذه عنده ، وتخلَّى عنها مختارًا ، مُصرًّا على أن يحيا حياةَ العامل الكادح في سبيل نعمة العيش الحلال ، بعيدًا عن الأضواء وصَخَب الحياة ، وعيشة المنعَّمين .

وهو يمثِّل بحق طراز الزهَّاد المسلمين الأوائل ، الذين يستقون زهدهم وطريقة حياتهم من منابع الإسلام الصافية ، قبل أن ينشأ التصوف ، ويصبح علمًا له رموزه ومصطلحاته ، وله رسومه وشطحاته ، وله مصادره ومنطلقاته ، وله أهدافه وغاياته ، وله شيوخه وقياداته ، وله مناهجه ومبالغاته .

ثناء الأئمة على إبراهيم بن أدهم :

أثنى عليه الأئمة من العلماء والزهاد ثناءً مستطابًا ، فعن سفيان الثوري قال : كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل،ولو كان في الصحابة لكان رجلاً فاضلاً.

وقال عبد الله بن المبارك : كان إبراهيم رجلاً فاضلاً ، له سرائر ، وما رأيتُه يُظهر تسبيحًا ولا شيئًا من عمله ، ولا أكل مع أحد طعامًا إلا كان آخر مَن يرفع يده .

---

(١) سبق تخريجه صـ ٣٤ .

وقال بشر بن الحارث الحافي: أربعة رفعهم الله بطيب المطعم: إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخوَّاص، ووهيب بن الورد، ويوسف بن أسباط[1].

وكل واحد من هؤلاء الثلاثة ـ سفيان وابن المبارك وبشر الحافي ـ إمام من أئمة الأمة، به يقتدى فيهتدى. وهذه شهادتهم لابن أدهم، وهم شهداء الله في الأرض.

كِبَرُ شأنه في الورع:

قال الحافظ المزّي في (تهذيب الكمال): كان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن في باب الورع، يحكى عنه أنه قال: أطب مطعمك، ولا عليك أن لا تقوم بالليل، ولا تصوم بالنهار!

وقال خلف بن تميم: سألتُ إبراهيم بن أدهم: منذ كم قدمتَ الشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وما جئتُ لرباط ولا لجهاد. قلتُ: ولم جئتَ؟ قال: جئتُ أشبع من خبز الحلال.

وقال: أعز الأشياء في آخر الزمان ثلاثة: أخ في الله يُؤنَس به، وكسب درهم من خبز حلال، وكلمة حقٍّ عند سلطان!

وقال شقيق البلخي: لقيتُ إبراهيم بن أدهم بالشام، فقلتُ: يا إبراهيم تركتَ خراسان؟ فقال: ما تهنيتُ بالعيش إلا في بلاد الشام، أفرُّ من شاهق إلى شاهق، فمَنْ رآني يقول: موسوس! ومَنْ رآني يقول: حمَّال! ثم قال: يا شقيق، لم يقبل مَن قُبِل عندنا بالحجِّ، ولا بالجهاد، وإنما قُبِل عندنا مَن قبل: مَن كان يعقل ما يدخل جوفه ـ يعني الرغيفين ـ من حلِّه! ثم قال: يا شقيق، ماذا أنعم الله على الفقراء؟ لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة، ولا عن حجٍّ، ولا عن جهاد، ولا عن صلة رحم ـ يعنى: الصلة بالمال ـ إنما يُسأل عن هذا هؤلاء المساكين. يعني: الأغنياء!

---

(١) أورد هذه الآثار ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٢٨٩، ٢٩٠).

الزهد ثلاثة أصناف :

وكان يقول : الزهد ثلاثة أصناف : فزهد فرض ، وزهد سلامة ، وزهد فضل ، فالزهد الفرض : الزهد في الحرام ، والزهد السلامة : الزهد في الشبهات ، والزهد الفضل : الزهد في الحلال[1].

مقوِّمات الزهد عند ابن أدهم :

وللزهد عند ابن أدهم مكوِّنات أو مقوِّمات ، يستطيع الباحث في مفردات سيرته ، وفيما رواه أصحابه وتلاميذه من أقواله وأفعاله وموافقه : أن يستخلصها ويرتبها في جملة مبادئ أو معالم .

١- تحرِّي الحلال :

المبدأ الأول : تحرِّي الحلال ، بمعنى أن يأكل من عمل يده ، وأن يكون حلالاً صرفًا . وهذا ما شدَّد فيه ، فلا يقبل لقمة أو درهمًا أو دانقًا من حرام أو من شبهة . وهذا أساس الورع ، والورع عنده شرط للزهد ، أو مقدِّمة له ، فلا زهد بلا ورع . وله في ذلك مواقف تروى . والسعيُ إلى الحلال هو السبب في هجرته إلى الشام ، وإقامته فيها .

وضع نصب عينيه حديث الرسول الكريم :«ما أكل أحدٌ قط طعامًا خيرًا من عمل يده ، وإنَّ نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده»[2]. فأصرَّ على أن يكسب لقمة عيشه بجهده وعرقه ، ولا يقبل أن يعيش عالة على أحد ، أو يتصدق عليه أحد ، ويذم الزاهد الذي لا يعمل ، ويعتمد على صدقات الناس ، عالمًا أن الصدقة : «لا تحلُّ لغنيّ ، ولا لذي مِرَّة سويّ»[3].

وقد اختار أن يعمل بأجر للناس فيما يحسنه من الأعمال ، مثل حصاد الغلال ، وهي مهنة اكتسبها بالممارسة ، وهو العائش في بحبوحة من النعيم .

---

(١) سبق تخريجه صـ ٩٥ .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٩٢ .

(٣) رواه أحمد (٦٥٣٠)، وقال مخرِّجوه : إسناده قوى ، رجاله رجال الشيخين ، وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢) ، كلاهما في الزكاة وحسنه الترمذي ، وصحَّحه الألباني في المشكاة (١٤٤٤) ، عن عبد الله بن عمرو .

من هنا كان يأكل من عمل يده، مثل: حصاد القمح وغيره من الغلال، وحفظ البساتين، أي: كان يعمل ناطوراً أو خفيراً أو ناظراً لهذه البساتين، أي راعياً وحافظاً، بأجر زهيد، ولكنه كان سعيداً بهذه المعيشة المتقشِّفة، لأنه كان مطمئناً إلى أنه يكسب عيشه من الحلال. وكان هذا هو الذي يعنيه قبل قيام الليل، وصيام النهار.

٢- الزهد في الكلام:

ولم يكن الزهد عنده مقصوراً على الطعام واللباس ونحوهما، بل كان الزهد في الكلام أيضًا.

فمن الناس مَن يُحبُّ أن يَتَصدَّر المجالس بالكلام، وأن يكون صوتُه مسموعًا، وأن يغلب كلَّ الأصوات، وهي شهوةٌ ربما فاقت شهوة البطن، وشهوة الفرج، وكم أدَّت شهوة الكلام هذه إلى ضَيَاع صاحبها أو تلفه في الدنيا، كما قال الشاعر:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنَّك إنه ثعبان[1]!

ولهذا جاءت التَّحذيرات من آفات اللسان، وجاء في الحديث: «مَن صمت نجا»[2]، وقال ابن مسعود: يا لسان، قل خيراً تغنم، واسكت عن شرٍّ تسلم[3]!

كان الصالحون يخافون على أنفسهم من حصاد ألسنتهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟»[4].

---

(١) من شعر: الإمام الشافعي. وأورده النووي في رياض الصالحين.

(٢) رواه أحمد في المسند (٦٤٨١)، وقال مخرجوه: إسناده حسن، والترمذي في صفة القسامة (٢٥٠١)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، والدارمي في الرقاق (٢٧١٣)، والطبراني في الأوسط (٢/٢٦٤)، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٤/٢٥٤)، وصحَّحه الألباني في الجامع الصحيح (٦٣٦٧).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٠/١٩٧)، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٤/٢٤٠)، عن ابن مسعود، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (١٠/٥٣٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٧٢).

(٤) رواه أحمد (٢٢١٢١) وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الإيمان عن رسول الله (٢٦١٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في تغيير الرؤيا (٣٩٧٣) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٠٩).

حتى كان بعضهم يضع حصاة في فمه ، يحتاج إلى أن يخرجها منه كلَّما تكلم ، ليجبره ذلك على قلَّة الكلام فيما لا يعنيه .

الكلام على أربعة أوجه :

قال أبو إسحاق الفزاري : كان إبراهيم بن أدهم يطيل السكوت ، فإذا تكلَّم ربما انبسط ، فأطال ذات يوم السكوت ، فقلتُ له : لو تكلَّمتَ ؟ فقال : الكلام على أربعة أوجه : فمن الكلام كلام ترجو منفعته ، وتخشى عاقبته ، فالفضل في هذا : السلامة منه .

ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته ، ولا تخشى عاقبته ، فأقلُّ ما لك في تركه : خفَّة المؤونة على بدنك ولسانك .

ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته ، ولا تأمن عاقبته ، فهذا قد كفي العاقل مؤونته .

ومن الكلام كلام ترجو منفعته ، وتأمن عاقبته ، فهذا الذي يجب عليك نشره .
قال خلف راوي هذه القصة : فقلت لأبي إسحاق : أراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام!
قال : نعم[1].

وكان من قوله رحمه الله : أعربنا في الكلام فلم نلحن ، ولحنَّا في الأعمال فلم نعرب[2] !

٣- التقلُّل من الدنيا :

فرَّ إبراهيم منذ أدركته الهداية الربَّانية من نعيم الدنيا وترفها وزينتها ، التي يتنافس الناس عليها ، ويتهارشون على متاعها تهارش الذئاب ، ولكنه طلَّق هذه الحياة التافهة التي يعيش لها كثير من الناس . طلَّقها ثلاثًا لا رجعة فيها . وأصرَّ ألا يعود إلى ملك الحياة ، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع إذا خرج منه .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (١/٦٧) .
(٢) رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة (٨٥١) .

لا يحرم على نفسه الطيِّبات ، ولكنه يتقلَّل منها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ولا يسعى إليها ، بل هي سعت إليه أكثر من مرة ، فرفضها طائعًا مختارًا .

رفضه هبة إخوته وتصدُّقه بها :

سعت إليه حينما أرسل إليه إخوته في خراسان من المال ما يعينه على حياته مما آتاهم الله من فضله ، فلم يأخذ منه درهمًا ولا فَلْسًا ، والخبر ذكره أبو نعيم في الحلية فقال : عن علي بن بكار قال : كنا جلوسًا عند الجامع بالمصيصة ، وفينا إبراهيم بن أدهم ، فقدم رجل من خراسان فقال : أيكم إبراهيم بن أدهم ؟ فقال : القوم هذا ـ أو قال : أنا هو ـ قال : إنَّ إخوتك بعثوني إليك ، فلما سمع ذكر إخوته قام فأخذ بيده فنحَّاه ، فقال : ما جاء بك؟ قال : أنا مملوكك مع فرس وبغلة وعشرة آلاف درهم ، بعث بها إليك إخوتك ، قال : إن كنت صادقًا فأنت حر ، وما معك فلك ، اذهب فلا تخبر أحدا قال : فذهب ، قال : وكان إبراهيم يطحن وإحدى رجليه مبسوطة والأخرى قد كفَّها ، فلا يكف تلك المبسوطة ، ولا يبسط تلك المكفوفة حتى يفرغ من مدين ، فإذا فرغ من مدين بسط تلك ، وكفَّ هذه ، فيطحن مُدين آخرين[1] .

فانظر إلى هذه النفس الغنية بالله ، كيف رفضت هذه الهبة الكبيرة من إخوته ، وتصدَّق بها كلها على من جاء بها . وعاش بعد ذلك يطحن الحبوب بالرحى ، وهو قرير العين .

تنازله عن ميراث أبيه :

وسَعَت إليه مرة أخرى بعد موت أبيه ، واستحقاق نصيبه من ميراث أبيه (فريضة من الله) ورفض مرة أخرى أن يأخذ حقَّه ، فتغيِّر من سير حياته أو نهج حياته الذي ارتضاه لنفسه : أن يعيش من كسبه ، وأن يأكل من عمل يده ، وأن يعمل حصَّادًا لأصحاب المزارع ، أو ناطورًا لأصحاب البساتين ، وتنازل عن ميراثه لمن جاءه به .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٣/٧) .

روى أبو نُعيم بسنده عن عيسى بن حازم ، يقول : بينا إبراهيم بن أدهم يحصد حقل زرع ، أخذه جزافًا ، إذ وقف عليه رجلان معهما ثقل ووطاء مع كل واحد منهما نفقة ، فسلَّما عليه ، فقالا له : أنت إبراهيم؟ قال : نعم ، قالا : إنا مملوكان لأبيك ، ومعنا مال ووطاء ، فقال : ما أدري ما تقولان إن كنتما صادقين فأنتما حران ، وما معكما لكما ، لا تشغلاني عن عملي[1]!

عدم قبول الهدايا إلا بشروط :

وكثيرًا ما كانت تأتيه الهدايا والهبات من الناس ، يتقرَّبون إلى الله بالهدية إليه ، فلا يقبلها ، إلا نادرًا ، من بعض إخوانه الموسرين ، أو من بعض الناس بشروط معينة .

عرض عليه بعضهم أن يقبل هدية منه ، فقال : أقبلها إن كنت غنيًّا ، فقال الرجل : إني ذو مال كثير ، وعندي كذا وكذا وكذا . فقال له : تحب أن يتضاعف مالك ؟ قال : نعم . قال : لست إذًا غنيًّا ، وأنت تطلب المزيد . ولم يقبل هديته .

وكان يقبل الهدية بشروطها ، ويثيب عليها تأسيًا بهدي رسول الله ﷺ .

فعن عيسى بن حازم قال : كان لإبراهيم أخ له من عسقلان ، يقال له : أزهر ، فسأل عنه فأخبر عنه أنه مريض في حصين على الساحل ، فأخذ أزهر كساء صوف ، فوضعه على رقبته ، ثم لزم الساحل حتى أتاه فوجده مريضًا . وإذا هو على بارية ليس تحته شيء ، فقال له : يا أبا إسحاق أحب أن تأخذ هذا الكساء فتضع نصفه تحتك ونصفه فوقك ، قال : قال : ما يخف عليّ؟ قال : لو فعلت سررتني ، فقد غمَّني ، قال : وقد غمَّك؟ قال : نعم! ضعه ، فوضعته ومضيت مخافة أن يبدو له ، قال أزهر : فجاء بعد أيام فرفع ردائي ودسَّ تحته شيئًا ومضى ، فأرفع ردائي فإذا عمامة قطن جديدة ، قد لفَّها على نعل جديدة ، فمضيت حتى لحقته خارجًا من المدينة فقال : هكذا أدركت الناس يأخذون ويعطون ، انصرف بما معك ، فانصرفت[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٣/٧) .

(٢) المصدر السابق (٣٨٣/٧، ٣٨٤) .

امتناعه عن الزواج :

ومن زهده في الدنيا وتقلله فيها : امتنع عن الزواج ، فالمرأة لا شك من الدنيا ، من زينتها ومتاعها ، كما في الحديث الصحيح : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة »[1]، وفي الحديث الآخر :« حُبِّب إلي من دنياكم : النساء والطيب »[2] وهو لم يُرِد هذه الدنيا ، لا لأنه يحرم ما أحلَّ لله ، أو يخالف سنة رسول الله ، ولكن يخاف من نفسه ألا تقوم بما يجب لها من حق ، وهو مشغول عنها ، وليس كالرجل الذي يستطيع أن يعطي لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه[3].

ولهذا لما سأله بقية بن الوليد قال : لقيت إبراهيم بن أدهم بالساحل ، فقلت : أكنيك أم أدعوك باسمك ؟ فقال : إنْ كنيتني قبلت منك ، وإن دعوتني باسمي فهو أحب إلي ، فقال لي : يا بقية كن ذَنَبًا ولا تكن رأسًا ، فإن الذنَبَ ينجو والرأس يهلك ، قال قلت له : ما شأنك لا تتزوج؟ قال : ما تقول في رجل غرَّ امرأته وخدعها ؟ قلت : ما ينبغي هذا ، قال : فأتزوَّج امرأة تطلب ما يطلب النساء لا حاجة لي في النساء ، قال : فجعلت أثني عليه ، قال : ففطن ، فقال : لك عيال؟ فقلت : نعم ، قال : روعة من روعة[4] عيالك أفضل ممَّا أنا فيه[5]. فهو يخشى من الزواج أن تطالبه امرأته بما تطالب به المرأة من حقوق على زوجها من المعاشرة الجنسيَّة ، ومن المُطَايبة والمُؤَانسة وغيرها ، وهو مشغول عن هذا كله ، وربما من طول الجوع والمعاناة لم تعد لديه قدرة ولا رغبة في النساء ، فهذا يظلم أي امرأة يتزوجها ، وكانت حياته لا تستطيع امرأة أن تتحمَّلها ، فقد كان هو وأصحابه

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٠٥ .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٠٥ .

(٣) ومثل ابن أدهم في ذلك كثير من العلماء العزاب ، الذين شغلهم العلم عن القيام بحقِّ الزوجيَّة وبناء الأسرة ، مثل : بشر الحافي ، وابن جرير الطبري ، وأبي علي الفارسي ، والزمخشري ، والنووي ، وابن تيمية . وانظر كتاب : «العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج» للعلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى . .

(٤) روعة : أي : فَزْعة .

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٢١) .

يأكلون الخبز بالملح ، وكانوا يمنعون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ، ولا يجعلون في ملحهم أبزارًا[1] (أي : توابل)، وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيِّب رمى بطيِّبها إلى أصحابه ، وأكل هو الخبز والزيتون . وأيُّ امرأة تطيق هذه المعيشة ؟ ولا يستطيع هو أن يتنازل عنها .

شِدَّتُه على نفسه :

وقد كان شديدًا على نفسه . حتى أنه يصبر على الجوع أيامًا لا يأكل ، أو يأكل ما لا يأكله أحد، كما قيل من أنه يبل الرمل بالماء ويأكله حتى يجد الخبز الحلال.

عن بقية بن الوليد ، قال : قلت لرفيق لإبراهيم : أخبرني عن أشدِّ شيء مرَّ بكم منذ صحبته؟ قال : نعم كنا يومًا صيامًا ، فلما كان عند الإفطار ، لم يكن عندنا شيء نفطر عليه ، فقلت له : يا أبا إسحاق هل لك في خصلة أن نأتي باب الرستن فنكرى أنفسنا مع هؤلاء الحصَّادين؟ قال : وذاك ، فأتينا باب الرستن ، فجاء رجل فاكتراني بدرهم ، قال : قلت : وصاحبي؟ قال : صاحبك ضعيف لا أريده ، قال : فما زلت به حتى اكتراه بأربعة دوانق ، (أي : ثلثي درهم) قال : ـ ونحن صيام ـ فلما كان عند المساء أخذت الكراء منه ، فأتيتُ السوق ، فاشتريت ما احتجت إليه ، وتصدَّقت بالباقي فقال : أما نحن فقد استوفينا أجرينا ، فليت شعري أوفيناه أم لا؟ قال : فلما رأيت ذلك غضبت ، فلما رأى غضبي قال : لا بأس ، تضمن لي أنَّا أوفيناه عمله؟ قال : فلما رأيت ذلك أخذت منه الطعام ، فتصدَّقت به ، فهذا أشد شيء مرَّ بي منذ صحبته .

شدَّةُ مفارقة الوطن :

وقال : عالجتُ العبادة ، فما وجدتُ شيئًا أشدَّ عليّ من نزاع النفس إلى الوطن . ويقول : ما قاسيتُ فيما تركت شيئًا أشدّ عليَّ من مفارقة الأوطان .

وقال : ما قاسيتُ شيئًا من أمر الدنيا أشدّ عليَّ من نفسي ، مرة عليَّ ومرة لي ، وأما هواي فقد والله استعنت بالله عليه ، فأعانني ، واستكفيته سوء مغالبته ، فكفاني ، فوالله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٣/٥٠٠) .

ويقول : ما كانت لي مؤونة قط على أصحابي ولا على غيرهم ، إلا في شيء واحد فقلت : فإيش يا أبا إسحاق ؟ قال : ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصَّادين ، فيحتاجون أن يكروني ، ويأخذون لي الأجرة . فهذه كانت مؤونتي عليهم[1].

ومرة أخرى قال له رجل : لو تزوجت؟ فقال : لو أمكنني أن أُطلِّق نفسي لطلقتها[2]!

فمن كان يرى نفسه عاجزًا عن حَمْل ذاته ، فكيف يحمل غيره معه؟!

٤- خوف الله وحساب الآخرة :

ومن مقوِّمات الزهد عند إبراهيم بن أدهم : استحضار رقابة الله تعالى ، وأنه يراك قبل أن تراه ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، وأن كل ما يعمله الإنسان مسجل عنده ، وأنه يحاسب عليه ، يوم تنصب الموازين ، وتنشر الدواوين ، وتبلى السرائر ، ويحصل ما في الصُّدور ، ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (النحل:١١١) ، فكانت الآخرة أبدًا نصب عينيه ، والموت والقبر وما بعدهما ، والموت أشد ما قبله ، وأهون ما بعده ، وكان إبراهيم يقول : دارنا أمامنا ، وحياتنا بعد وفاتنا ، فإما إلى الجنة ، وإما إلى النار[3].

وكان يقول : مثِّل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك ، وانظر كيف تكون ، ومثِّل له هول المطلع ومساءلة منكر ونكير ، وانظر كيف تكون ، ومثِّل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب ، وانظر كيف تكون . ثم صرخ صرخة خرَّ مغشيًّا عليه[4].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/٣٧٩- ٣٨١) .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣٠١).

(٣) رواه البيهقي في الزهد الكبير صـ ٢١٣

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣٣٠ ، ٣٣١) .

ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك ، فقال له : لا تطمع فيما لا يكون ، ولا تيأس مما يكون . فقيل له : كيف هذا يا أبا إسحاق ؟ فقال : لا تطمع في البقاء والموت يطلبك ، فكيف يضحك مَن يموت ولا يدري أين يذهب ؛ إلى جنة أم إلى نار ؟! ولا تيأس مما يكون ، الموت يأتيك صباحًا أو مساءً . ثم قال : أوه أوه ! ثم خرَّ مغشيا عليه[1].

وكان يقول : ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا ، ولا نسأل كشفه من ربنا . ثم يقول : ثكلت عبدًا أمه أحب الدنيا ، ونسي ما في خزائن مولاه !

وقال : إذا كنت بالليل نائمًا ، وبالنهار هائمًا ، وبالمعاصي دائمًا ، فكيف يرضى من هو بأمورك قائمًا[2]؟!

ورآه بعض أصحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي ، ويضرب بيديه على رأسه ، فقال : ما يبكيك؟ فقال : ذكرت يوما تتقلَّب فيه القلوب والأبصار .

وقال : إنك كلما أمعنت النظر في مرآة التوبة بان لك قبح شَيْن المعصية .

وكتب إلى الثوري : من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه[3].

كيف يتمُّ الورع ؟

وقال إبراهيم بن أدهم : إنما يتمُّ الورع بتسوية كل الخلق في قلبك ، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل ، من قلب ذليل ، لرب جليل ، فكر في ذنبك ، وتُب إلى ربك ، يَثْبت الورع في قلبك ، واقطع الطمع إلا من ربك[4].

وقال أيضًا : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك ، ذمَّ مولانا الدنيا فمدحناها ، وأبغضها فأحببناها ، وزهَّدنا فيها فآثرناها[5].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٣٢) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣٣٢).

(٣) أورد هذه الآثار ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣٣٣ ، ٣٣٤).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦) .

(٥) رواه البيهقي في الزهد الكبير صـ ١٣٨ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣٣٩)، وانظر البداية والنهاية (١٣/٥٠٧-٥٠٩) ، طبعة هجر ، الطبعة الأولي ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م .

٥- سكينة النفس ورضاها بما قَسَم الله عز وجل :

ومن مقومات زهده : الاطمئنان إلى ما عند الله ، وسكينة النفس بالأنس به ، والرضا بما قسم الله تعالى للعبد ، واعتياد ذلك هو السعادة العظمى التي لا تدانيها سعادة ، والتى حرِمها الملوك وأبناء الملوك ، ونالها طلاب الآخرة ، وعشاق ما عند الله عز وجل .

رزق الله مضمون :

فقد روى أبو نعيم عن إبراهيم بن بشار الصوفي الخراساني خادم إبراهيم ابن أدهم قال : أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة وليس معنا شيء نفطر عليه ولا بنا حيلة ، فرآني مغتمًا حزينًا ، فقال : يا إبراهيم بن بشار ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة! لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حجّ ولا عن صَدَقة ولا عن صلة رحم ـ أي بالمال ـ ولا عن مواساة ، وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين ـ يعني الأغنياء ـ أغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة ، أعزة في الدنيا أذلة يوم القيامة ، لا تغتمّ ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تعجَّلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي على أيِّ حال أصبحنا وأمسينا ، إذا أطعنا الله عزَّ وجل . ثم قام إلى صلاته ، وقمت إلى صلاتي ، فما لبثنا إلا ساعة ، إذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير ، فوضعه بين أيدينا ، وقال : كلوا رحمكم الله ، قال : فسلّم ، وقال : كل يا مغموم ، فدخل سائل فقال : أطعموني شيئًا ، فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر فدفعه إليه ، وأعطاني ثلاثة وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين .

لذة عيش ابن أدهم :

وروى أبو نعيم بسنده أيضًا عن إبراهيم بن بشار الرطابي قال : بينا أنا وإبراهيم ابن أدهم ، وأبو يوسف الغسولي ، وأبو عبدالله السخاوي ، ونحن متوجِّهون نريد الإسكندرية ، فصرنا إلى نهر ، يقال له (نهر الأردن) فقعدنا نستريح ، فقرب أبو يوسف الغسولي كسيرات يابسات ، فأكلنا وحمدنا الله تعالى ، وقام أحدنا ليسقي إبراهيم . فسارعه فدخل النهر ، حتى بلغ الماء ركبتيه ، ثم قال : بسم الله فشرب ، (أي كَرَعَ بيديه) ، ثم قال : الحمد لله ، ثم يبدأ ثانية ، فقال : بسم الله ، ثم

شرب ، ثم قال : الحمد لله ، ثم خرج ، فمدَّ رجليه ، ثم قال : يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم ، إذًا لجالدونا بأسيافهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش ، وقلة التعب!! ـ زاد أحد الرواة ـ فقلت له : يا أبا إسحاق طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم ، فتبسم ثم قال : من أين لك هذا الكلام[1]؟

ولقد صدق ابن أدهم ، فإن السلطان إن أكل شيئًا خاف أن يكون قد طرح له فيه سم ، وإن نام خاف أن يغتال ، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة ، فإن خرج كان منزعجاً من أقرب الخلق إليه ، واللذة التي ينالها تبرد عنده ، ولا تبقي له لذة مطعم ولا منكح .

وكلما استظرف المطاعم أكثر منها ففسدت معدته ، وكلما استجدَّ الجواري أكثر منهنَّ فذهبت قوته ، ولا يكاد يبعد ما بين الوطء والوطء فلا يجد في الوطء كبير لذة ؛ لأنَّ لذة الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين ، وكذلك لذة الأكل . فإن من أكل على شبع ، ووطئ من غير صدق شهوة وقلق ، لم يجد اللذَّة التامَّة التي يجدها الفقير إذا جاع ، والأعزب إذا وجد امرأة .

ثم إنَّ الفقير يرمي نفسه على الطريق في الليل فينام ولذة الأمن قد حرمها الأمراء فلذتهم ناقصة وحسابهم زائد)[2].

٦- السَّخَاء والإيثار :

ومن مكوِّنات الزهد عند ابن أدهم : السخاء بما عنده لإخوانه ، ولكل الفقراء والمحاويج ، وأبناءهم على نفسه ، فهو يرضى بالقليل وبالدون ، وبالعيش الخشن ، وبالجوع أحيانًا ، ويُؤْثر الآخرين على نفسه ، عن رضا وطيب خاطر .

قالوا : وكان إذا جلس على سُفرة فيها طعام طيِّب رمى بما وقع بين يديه إلى أصحابه وأكل هو الخبز والزيتون[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/٣٧٠،٣٧١) .

(٢) صيد الخاطر صـ ٢٥٠ ، بتحقيق الشيخ محمد الغزالي .

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٢٩٨) .

وذكروا أنه كان يعمل بالفاعل ، ثم يذهب فيشتري الخبز الأبيض والزبد ، وتارة الشواء والجوذبان (الأرز بالسكر والجوز واللحم) والخبيص (يعمل من التمر والسمن) فيطعمه أصحابه ، وهو صائم ، فإذا أفطر ، يأكل من رديء الطعام ، ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبرَّ به الناس تأليفًا لهم وتحبُّبًا وتودُّدًا إليهم[1].

وقال مضاء بن عيسى: ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه إلا بالصدق والسخاء[2].

٧- خدمة إخوانه وخدمة الناس :

من معالم زهد ابن أدهم : أنه وضع نفسه في خدمة الناس عامة ، وفي خدمة إخوانه خاصَّة ، وكان يخدمهم بنفسه وبدنه ، وما يبذله من جهد ، ويجد لذلك لذته ، يتعب ليرتاحوا ، ويسهر لينام وا ، ويجوع ليشبعوا ، ويمشي ليركبوا ، ويعمل كل ما في وسعه ليدخل عليهم السرور والبهجة .

وله في ذلك عجائب ونوادر ، لا تصدر إلا عن الصِّدِّيقين .

فعن سهل بن بشر قال : مرَّ بي إبراهيم بن أدهم ، وأنا أكسر عود حطب قد أعياني ، فقال لي : يا محمد قد أعياك ؟ قلت : نعم ، قال : فتأمر لنا به ؟ قلت : نعم ، قال : وتعيرنا الفأس؟ قلت : نعم؟ قال : فأخذ العود ووضعه على رقبته ، وأخذ الفأس ومضى ، فبينا أنا على ذلك إذا أنا بالباب قد فتح والحطب يطرح في الباب مكسَّرًا ، وألقى الفأس ، وأغلق الباب ومضى . قال : وكان إبراهيم إذا صلَّى العشاء ، وقف بين يدي الدور فنادى بأعلى صوته : مَن يريد يطحن ؟ فكانت المرأة تخرج القفة ، والشيخ الكبير ، فينصب الرحى بين رجليه ، فلا ينام حتى يطحن بلا كراء ، ثم أتى أصحابه[3].

وعن خلف بن تميم قال : سألتُ إبراهيم بن أدهم : مُذْ كم أنت ههنا بأرض الشام ؟ قال : منذ أربع وعشرين سنة ، وقال : دفعت إلى شباب من العرب

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣٠٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/٣٨٤) .

(٣) المصدر السابق (٧/٣٧٢ ، ٣٧٣) .

يحصدون ، وقد ضربوا خباءً لهم ، فقالوا : يا فتى ادْنُ فاحصد معنا ، قال فحصدت معهم ، فكانوا يعطونني من الأجر ما يعطون واحدًا منهم من الأستاذين ، فقلت بيني وبين نفسي : ما أرى هذا يسعُني ، هؤلاء الأستاذون وأنا لا أحسن أحصد ، قال : فكنت أدعهم إذا أخذوا مضاجعهم وناموا ، أخذت المنجل فحصدت ، قال : فأصبح وقد حصدت شيئًا صالحًا ، قال : فسمعتهم يتوشوشون فيما بينهم يقولون : أليس هذا الزرع كان البارحة قائما فمن حصده؟ فيقول بعضهم لبعض : هذا نراه بالليل يقوم فيحصد ، فأسمعهم يقولون : ما يسعنا ذا ؛ هذا يحصد بالليل والنهار ، وإنما يأخذ أجر رجل واحد[1].

وعن أحمد بن الفضل العتكي قال : سمعتُ أبي يقول : مرَّ إبراهيم بن أدهم بقَيْسارِيَة ، وقد تعجَّل دينارًا من الكرم ، فسمع صوت امرأة تصيح ، فقال : ما لهذه؟ قالوا : تلد ، قال : وأي شيء يُعمل بالمرأة؟ قالوا : يُشترى لها طحين وزيت ولحم وعسل ، فصرف دينارَه ، واشترى زنبيلاً وملأه طحينًا ، واشترى زيتًا وسمنًا وعسلاً ولحمًا ، وحمله على رقبته إلى الباب ، وقال : خذوا ، قال : فنظر فإذا هم أفقر بيت في أهل قيساريَّة وأعبدُهم[2].

اشتراطه على رفقائه الخدمة والأذان :

وكان إذا غزا اشترط على رفقائه أن يكلوا له أمرين : الخدمة والأذان . فقد روى أبو نعيم عن عيسى بن حازم يقول : كان إبراهيم بن أدهم إذا غزا اشترط على رفقائه الخدمة والأذان[3].

وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يخدمه إبراهيم ، ويصرُّ على ذلك ، مع ما كان له من منزلة كبيرة في أنفس الناس . فكان إذا حضر في مجلس ، فكأنما على رؤوسهم الطير ، هَيْبةً له وإجلالاً[4].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٧) .

(٢) المصدر السابق (٣٨٢/٧) .

(٣) المصدر السابق (٦/٨) .

(٤) انظر : البداية والنهاية (٥٠١/١٣) .

وكان يساعده على خدمة الناس التواضع ، الذي جعله من الأذلة على المؤمنين ، فكان لا يستكبر عن شيء ولا يتعالى على أحد .

ورآه الأوزاعي ببيروت ، وعلى عنقه حزمة حطب ، فقال : يا أبا إسحاق ، إنَّ إخوانك يكفونك هذا! فقال له : اسكت يا أبا عمرو! فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلَّة في طلب الحلال وَجَبت له الجنة[1].

وكان مع شدَّته على نفسه ، لا يكلِّف أحدًا همَّ نفسه . يقول : ما كانت لي مؤونة قط على أصحابي ولا على غيرهم ، إلا في شيء واحد ، فقلت : فايش يا أبا إسحاق ؟ قال : ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصادين ، فيحتاجون أن يكروني ، ويأخذون لي الأجرة . فهذه كانت مؤونتي عليهم[2].

مباسطته أصحابه :

وكان مع أصحابه يباسطهم ، ويشعرهم بقربه منهم ، وقربهم منه ، فلا يتكلَّف معهم ، ولا يتكلَّفون معه . وقد قيل : إذا زادت الألفة سقطت الكلفة .

حدَّث أبو المنذر بشر بن المنذر ــ قاضي المصيصة ــ قال : كنت إذا رأيت إبراهيم بن أدهم كأنه ليس فيه روح ، ولو نفخته الريح لوقع ، قد اسودَّ ، متدرع بعباءة ، فإذا خلا بأصحابه فمن أبسط الناس .

وعن عيسى بن حازم قال : كنا مع إبراهيم بن أدهم في بيت ومعه أصحاب له ، فأتوا ببطيخ ، فجعلوا يأكلون ويمزحون ويترامون بينهم ، فدقَّ رجل الباب ، فقال لهم إبراهيم : لا يتحركنَّ أحد ، قالوا : يا أبا إسحاق : تعلِّمنا الرياء ؟ نفعل في السر شيئًا لا نفعله في العلانية ؟ فقال : اسكتوا إني أكره أن يُعصى الله فيَّ وفيكم[3]. (يعني : أنه يخشى إذا سمع الطارق اللهو والمزاح أساء الظن بهم فعصى الله بذلك).

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣١٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/٣٧٩- ٣٨١) .

(٣) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٨/٩) .

٨- الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين :

ومن مكوِّنات الزهد عند ابن أدهم : اهتمامه بأمر الإسلام وأمر المسلمين ، وعزة الدين ونصرته .

ومن الكلمات البليغة التي تُروى عنه في اعتزازه بالإسلام : أيُّ دينٍ لو كان له رجال[١].

وكان لا يهتم بشأن نفسه ، وإنما يهتمُّ بأمر المسلمين ، وحاجات المسلمين ، ويعمل على إعانتهم ، وتفريج كُرباتهم وقضاء حاجاتهم .

وعن بقية بن الوليد قال : صحبت إبراهيم بن أدهم في بعض كور الشام ، وهو يمشي ومعه رفيقه ، فانتهى إلى موضع فيه ماء وحشيش ، فقال لرفيقه : أترى معك في المخلاة شيء؟ قال : معي فيها كسر ، فَنَثرها فجعل إبراهيم يأكل ، فقال لي : يا بقية ادْن فكل ، قال : فرغبت في طعام إبراهيم ، فجعلت آكل معه ، قال : ثم إن إبراهيم تمدَّد في كسائه ، فقال : يا بقية ما أغفل أهل الدنيا عنا ما في الدنيا أنعم عيشًا منا ، ما أهتم بشيء إلا لأمر المسلمين[٢].

مشاركته في الجهاد :

ومن اهتمام ابن أدهم بأمر الإسلام وأمته ، كان اهتمامه بالمشاركة في الجهاد لم يكتف بجهاد نفسه عن جهاد الأعداء ، كما فعل بعض المتصوفة بعد ذلك ، الذين سموا جهاد العدو الجهاد الأصغر ، وأنَّ جهاد النفس الجهاد الأكبر . بل جمع بين الجهادين . وهل يتم جهاد الأعداء إلا بجهاد النفس .

جهاد الهوى :

وكان يقول : أشدُّ الجهاد جهاد الهوى ، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظا ومعافى من أذاها .

---

(١) رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة (٨٥٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٢١).

وقال أيضًا : الهوى يُردي ، وخوف الله يشفي ، واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك ، إذا خفت من تعلم أنه يراك[1].

ولم يكتف بالزهد والتعبُّد وما يمارسه من عمل في كسب الحلال ، وما يقوم به من السخاء والإيثار ، وخدمة الفقراء ، بل أصرَّ على أن يكون له نصيب مع الغزاة والمجاهدين .

شجاعته وإيثاره :

وكان له في غزواته مواقف في شجاعته وإيثاره وفي تحمل المتاعب ، ما يعز نظيره . فهو يصرُّ على أن يمشيَ ، ويدع إخوانه يركبون .

عن أحمد بن أبي الحواري قال : سمعتُ أبا الوليد يقول : غزوتُ أنا وإبراهيم ومعي فرسان ، وهو على رجليه ، قال : فأردتُه أن يركب فأبى ، فحلفتُ . قال : فركب حتى جلس على السَّرج . قال : قد أبررت يمينك ، ثم نزل . قال : فسرنا في تلك السرية ستًّا وثلاثين ميلا ، وهو على رجليه ، فلما نزلنا أتى البحر ، فأنقع رجليه ، ثم أتى فاستلقى ورفع رجليه على الحائط ، فهذا أشد شيء رأيتُه صنع .

وعن أحمد بن أبي الحواري : حدثني بعض أصحابنا قال : أصاب إبراهيم ابن أدهم وأصحابه ثلج بأرض الروم ، فدخل أصحابه في الخباء ، وبقي هو برّا ، فأرادوه أن يدخل فأبى ، قال : فأدخل رأسه في فروة كانت عليه ، فكلما كثر الثلج نفضه ، قال : فلما أصبحوا وطلعت الشمس ، خرج الذين كانوا في الخباء ، فقالوا : يا أبا إسحاق أي ليلة مرَّت بنا ؟ فنسأل الله أن لا يبتلينا بليلة أخرى مثلها ، قال إبراهيم : وكيف لنا بليلة أخرى مثلها[2]؟!

وعن بعض رفقاء إبراهيم : أنه كان مرَّة في الجهاد ، فحين رأى العدو ، رمى بنفسه في البحر يسبح نحوهم ، وسبح معه رجال آخرون ، فلما رآهم العدو بهذه الروح ، والاستبسال ، انهزموا أمامهم[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٨/٨).

(٢) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٣٨٧/٧) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧٩/٧) بنحوه .

بعده عن الجدل والخوض في الفتن :

ومع اهتمامه بأمر المسلمين ، لم يكن يحب أن يشغل نفسه بالفتن التي أصابت المسلمين في تاريخهم ، والدخول في الجدل الذي لا طائل تحته ، فعن يحيى ابن آدم ، قال : سمعتُ شريكًا يقول : سألتُ إبراهيم بن أدهم عما كان بين علي ومعاوية فبكى ، فندمت على سؤالي إياه ، فرفع رأسه فقال : إنه مَن عرف نفسه اشتغل بنفسه ، ومَن عرف ربَّه اشتغل بربِّه عن غيره[1] .

لماذا لا يستجاب الدعاء ؟

ولكنه كان يعرف آفات النفوس ، وأمراض القلوب ، التي تحول بين الناس وربهم ، ولماذا لا يستجيب دعاءهم إذا دعوا .

قال شقيق بن إبراهيم : مر إبراهيم بن أدهم في أسواق البصرة فاجتمع الناس إليه ، فقالوا له : يا أبا إسحاق إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:٦٠) ، ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا . قال : فقال إبراهيم : يا أهل البصرة ماتت قلوبكم في عشرة أشياء ، أولها : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، الثاني : قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به ، والثالث : ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته ، والرابع : ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ، والخامس : قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، والسادس : قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها ، والسابع : قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له ، والثامن : اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم ، والتاسع : أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، والعاشر : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم[2] .

٩- الابتعاد عن أهل السلطة :

ومن مقومات زهده : البعد عن رجال الحكم ، وأهل السلطان ، لا يحب أن يلقاهم ، ولا أن يزورهم ، فيصدقهم بكذبهم ، ويعينهم على ظلمهم ، فيبرأ منه محمد ﷺ ، ولا يرد عليه حوضه . فإذا اضطرته الأقدار أن يلقى أحدًا من ذوي السلطان قال كلمة الحق في وجهه .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٥) .

(٢) المصدر السابق (٨/١٥ ، ١٦) .

وقد روى عنه قوله : أعزُّ الأشياء في آخر الزمان ثلاثة : أخ يؤنس به ، وكسب درهم من حلال ، وكلمة حق عند ذي سلطان[1].

وروى أبو نعيم أنه دخل إبراهيم بن أدهم على أبي جعفر (المنصور) أمير المؤمنين فقال : كيف شأنكم يا أبا إسحاق؟ قال : يا أمير المؤمنين :

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع[2]

ولم يزد على ذلك ، ولا استزاده أمير المؤمنين ، ولا أدري متى كان هذا اللقاء ، ولا في أي مناسبة .

١٠- حُبُّ الخمول والبعد عن الشهرة :

ومن معالم الزهد عنده : الزهد في الشهرة والجاه ، وما يسمِّيه الناس في عصرنا بـ (الأضواء) التي يلهث وراءه الكثيرون ، وبعض الناس يحرصون عليها أكثر من حرصهم على المال والثروة . وهذا هو الذي جعل بعض الناس يتقاتلون على الجاه والمنصب ، وما وراءه من نفوذ وسلطة . وقد قيل : حبُّ الجاه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل .

ولكن إبراهيم حين طلَّق الدنيا وفارقها ، طلَّق معها حب الشهرة والمكانة المحمودة عند الناس ، وقد قال ابن عطاء الله ذلك : ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتمُّ نتاجه[3]. يشير إلى أن البذرة التي تنبت وتورق وتنمو هي التي تدفن تماما في الأرض ، لا التي تبقى على ظهرها ، فهذه لا يتم نتاجها ولا ينتفع بها .

وقد فرَّ مختارًا من الحياة الصاخبة الزاهية ، إلى هذه الحياة الجديدة العامرة بتقوى الله ، شعاره فيها الحديث الصحيح : « إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[4].

---

(١) رواه أبو ذر الهروي في فوائده (١٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٠) .

(٣) الحكمة الحادية عشر من الحكم العطائية .

(٤) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) ، وابن ماجه الزهد (٤١٤٣) ، عن أبي هريرة .

عن عباس بن الفضل المرعشي قال : لقيت عبد العزيز بن أبي رواد ، فتذاكرنا أمر إبراهيم بن أدهم . فقال عبد العزيز : رحم الله إبراهيم بن أدهم لقد رأيته بخراسان إذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكري ، ولكنه رحمه الله طلب بحبوحة الجنة .

وعن داود بن الجراح قال : كان إبراهيم بن أدهم ينظر كرمًا في كورة غزة ، فجاء صاحب الكرم ومعه أصحابه ، فقال : إيتنا بعنب نأكل فأتاه بعنب يقال له : الخافوني ، فإذا هو حامض ، فقال له صاحب الكرم : من هذا تأكل؟ قال : ما آكل من هذا ولا من غيره ، قال : لم؟ قال : لأنك لم تجز لي شيئًا من العنب . قال : فأتني برمان ، فأتاه برمان ، فإذا هو حامض ، فقال : من هذا تأكل؟ قال : لا آكل من هذا ولا من غيره ، ولكن رأيته أحمر حسنًا ، فظننت أنه حلو ، فقال : لو كنت إبراهيم بن أدهم ما عدا ، (أى ما فعلت أكثر من هذا ، ثم أنهم ذكروا صفته لبعض الناس فعرفوه) ، قال : فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم وترك كراه[1] .

وكان إبراهيم يقول : ما صَدَق الله من أحبَّ الشهرة[2] . وكان رفقاؤه كثيرًا ما يسمعونه ، وهو يعمل أو يحصد ، يرتجز ويقول :

اتَّخِذِ الله صاحبًا ... وَدَعِ النَّاسَ جانبًا[3]

لهذا كانت العزلة أحب إلى إبراهيم من الاختلاط بالناس ، ولكن العزلة عنده ليست عزلة الرهبان في الصوامع ، ولكنها عن أهل الدنيا ، وأهل السلطان ، وعن حب الظهور ، الذي طالما قصم الظهور . ولكنه كان يختلط بالفقراء والصالحين ، وبجماهير الناس ماداموا لا يعرفونه من هو؟ فإذا انكشف لهم فارقهم إلى مكان آخر .

من الأتقياء الأخفياء :

روى أبو نُعيم بسنده عن خلف بن تميم قال : قال لي إبراهيم بن أدهم : كنت في بعض السواحل ، وكانوا يستخدموني ويبعثوني في حوائجهم ، وربما يتَّبعني

---

(١) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٣٧١/٧ ، ٣٧٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩/٨) .

(٣) المصدر السابق (١٠/٨) .

الصبيان ، حتى يضربوا ساقي بالحصا ، إذ جاء قوم من أصحابي ، فأحْدقوا بي فأكرموني ، فلما رأوا أولئك إكرامهم لي أكرموني ، فلو رأيتموني والصبيان يرموني بالحصا وذلك أحلى في قلبي منهم حيث أحدقوا بي[1] .

وإنما قال ذلك ، لأنَّ الخمول أحب إليه من الشهرة ، يريد أن يكون من الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا .

اشتغاله بالعمل عن العلم :

وهذا الخمول ، والبُعد عن الشهرة ، هو الذي جعله يختار طريق العمل لا طريق العلم ، فلم يشتغل بطلب الحديث أو الفقه ، وتعلمه وتعليمه ، كما شغل أصحابه وشيوخه ؛ سفيان الثوري والفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، والأوزاعي وغيرهم . وقد قال أبو حنيفة يومًا لإبراهيم : قد رزقت من العبادة شيئًا صالحًا ، فليكن العلم من بالك ، فإنه رأس العبادة ، وقوام الدين[2] . ومع هذا اشتغل إبراهيم بالعمل عن العلم ، وخشي على قلبه ، من آفة التصدُّر في المجالس للتحديث ، والإقراء والإفتاء ، وما فيها من فتنة وإغراء .

وسئل مرة : لماذا لم تطلب الحديث؟ فقال : أخاف ألا أقوم بحقِّه .

وروى ابن أبي الدنيا قال : حدثنا أبو الربيع ، عن إدريس قال : جلس إبراهيم إلى بعض العلماء ، فجعلوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت ، ثم قال : حدثنا منصور . ثم سكت ، فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس ، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك! فقال : إني لأخشى مضرَّة ذلك المجلس في قلبي إلى اليوم[3] .

وقال رشدين بن سعد : مرَّ إبراهيم بن أدهم بالأوزاعي وحوله حلقة ، فقال : لو أنَّ هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم . فقام الأوزاعي وتركهم .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧١/٧) .

(٢) البداية والنهاية (٤٩٩/١٣) .

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٠/٦) من طريق ابن أبي الدنيا .

سبب تركه الحديث :

وقال إبراهيم بن بشار : قيل لابن أدهم : لم تركت الحديث؟ فقال : إني مشغول عنه بثلاث : بالشكر على النعم ، وبالاستغفار من الذنوب ، وبالاستعداد للموت ، ثم صاح وغشي عليه فسمعوا هاتفا يقول : لا تدخلوا بيني وبين أوليائي[1].

بل جعلوا من فضائله : أنه روى حديثًا واحدًا في الزهد ، فنفعه الله به ، واستغنى عن كثير مما يطلبه الناس .

روى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال : إنما سمع إبراهيم بن أدهم من منصور حديثًا ، فأخذ به ، فَسَادَ أهل زمانه ، قال : حدثنا منصور ، عن ربعي ابن خراش قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، دُلَّني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس . قال : « إذا أردتَ أن يُحبُّك الله فابغض الدنيا ، وإذا أردتَ أن يحبُّك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذه إليهم »[2].

ولكن زهده في الناس ، لا يعني الانعزال عنهم تمامًا ، كما يفعل الرهبان ، بل يخالطهم في مساجدهم وصلواتهم وجمعهم وجماعاتهم ، ويصاحب الأخيار منهم ، ويخدمهم بما يستطيع ، ولكنه لا يجعل رضاهم أكبر همه ، فرضا الناس غاية لا تدرك ، وهو ينظر إلى الله مثل أن ينظر إليهم ، ويسعى إلى مرضاته وإن أسخطتهم . شعاره :

إذا صحَّ منك الود فالكل هين وكل ما فوق التراب تراب[3]

كان يقول : فرُّوا من الناس كفراركم من السبع الضاري ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة[4].

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٢٩١ ، ٢٩٢) .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٢٩٠) .

(٣) من شعر : عبد الغني النابلسي .

(٤) البداية والنهاية (١٣/٥٠٣) ، وهو في تاريخ دمشق لابن عساكر (٦/٣١٣) .

١١- العبادة والعمل الصالح لله خالصًا :

ومن معالم زهده ، أو قل : من معالم طريقه الذي سلكه : الانشغال بعبادة الله وبالعمل الصالح الخالص ، عمَّن سواه ، وعمَّا سواه . فلا يشغله شيءٌ غير طاعة الله ، وعبادة الله . وكان عامة دعائه : اللهم انقلني من ذلِّ معصيتك إلى عزِّ طاعتك[١] . وكانت قُرَّة عينه في التعبد لله ، وخصوصًا إذا كان بعيدًا عن أعين الناس .

قال أصحابه : صلَّى بنا العتمة (أي : العشاء) ثم ما زال راكعًا وساجدًا ومتفكِّرًا حتى الصبح ، ثم صلى بنا الصبح على وضوء العتمة[٢]!

ولم يكن أكبر همّه كم العبادة ، ولكن كيفها . ماذا فيها من إخلاص ، وما وراءها من تفكر . قيل لعلى بن بكار من أصحابه : كان إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة؟ قال : لا ، ولكنه كان صاحب تفكر ، يجلس ليله يتفكر[٣] .

وكان يستريح بالخلوة مع الله ، بمعزل عن الناس . قالوا : رئي إبراهيم بن أدهم خارجًا من الجبل ، فقيل : من أين؟ فقال : من الأُنس بالله عز وجل[٤] .

وكان يقول : أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم بالنهار[٥] .

عبادته في رمضان :

وكان في شهر رمضان يُحْيى ليله بالصلاة والذكر ، ويعمل نهاره في الحصاد .

روى أبو نعيم بسنده إلى إسحاق الفزاري قال : كان إبراهيم بن أدهم في شهر رمضان يحصد الزرع بالنهار ، ويصلِّي بالليل ، فمكث ثلاثين يوما لا ينام بالليل ولا بالنهار!! أقول : وهل في استطاعة الإنسان ذلك؟ أو هو من المبالغات التي تعتاد في مثل ابن أدهم؟

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٣١، ٣٢) .

(٢) المصدر السابق (٧/٣٨٥، ٣٨٦) .

(٣) المصدر السابق (٨/١٧) .

(٤) المصدر السابق (٨/٢٠) .

(٥) المصدر السابق (٨/٣١) .

روى أبو نعيم في (الحلية) بسنده إلى موسى بن عبد الله الطرسوسي قال : سمعتُ أبا يوسف الغسولي يعقوب بن المغيرة يقول : كنا مع إبراهيم بن أدهم في الحصاد في شهر رمضان ، فقيل له : يا أبا إسحاق لو دخلت بنا إلى المدينة فنصوم العشر الأواخر بالمدينة لعلنا ندرك ليلة القدر؟ فقال : أقيموا ههنا وأجيدوا العمل ، ولكم بكلِّ ليلة ليلة القدر[1]!

* * *

(١) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٧) .

الفصل الخامس

عبد الله بن المبارك (١١٨-١٨١هـ)

الشخصية الثانية التي اخترتها مع إبراهيم بن أدهم ، نموذجًا للزهَّاد المسلمين الأوائل ، هي : شخصية عبد الله بن المبارك ، وهي شخصية أعجبت بها من قديم ، وتمنَّيت لو يمنحني الله تعالى رزازًا من وابل فضلها[1].

نقاط الاتفاق والاختلاف بين شخصية ابن المبارك وابن أدهم :

وهي شخصيَّة تجتمع مع ابن أدهم في الورع والزهد ، وفي السخاء والإيثار ، وفي التعبُّد لله والإخلاص له ، وفي خدمة الأصحاب والرفقاء ، والمشاركة في الجهاد ، ولكنها تختلف عنه في التجارة والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله ، وامتلاك المال والغنى ، وتسخيره في عمل الخير ، وإنفاقه على طلاب العلم وأهل الحديث ، وفي الاختلاط بالناس ، وطلب العلم والفقه في الدين ، وحفظ الحديث ، ثم تعليم الناس ، وتفقيههم في دين الله ، وفي معرفة كتاب الله ، وحديث رسول الله ﷺ ، والنصح للأمة ، وجمع خصال الخير والمكارم ، فهو ممن سماهم السلف : (الرباني) وهو الذي يَعْلَم ويعمل ويعلّم . ويزيد على ذلك ، أنه يرابط ويجاهد في سبيل الله .

إمامته في عدة مجالات :

فهو شخصيَّة متعدِّدة المواهب ، متنوِّعة القدرات ، ثرَّة العطاء ، ثرِّية بالمكرمات ، انعقدت له الإمامة في عدة مجالات : الإمامة في الحديث ، والإمامة في الفقه ،

---

(١) ممن أفرد ترجمته العلامة الأديب الشيخ علي الطنطاوي ، والشيخ أبو الوفا المراغي ، وأستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه «الإمام الرباني الزاهد عبدالله بن المبارك» ، والعالم الفاضل الشهيد محمد عثمان جمال في كتابه : «عبد الله بن المبارك الإمام القدوة» وهو من أوسع ما كتب عنه .

والإمامة في الورع ، والإمامة في الزهد ، والإمامة في العبادة ، والإمامة في السخاء ، والإمامة في الجهاد ، والإمامة في الأدب ومكارم الأخلاق . وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء .

ترجمة الذهبي وابن كثير لابن المبارك :

ترجم له مؤرخ الإسلام ، الحافظ الذهبي في (السير) فقال : الإمام ، شيخ الإسلام ، عالم زمانه ، وأمير الأتقياء في وقته ، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم ، التركي ثم المروزي ، الحافظ الغازي ، أحد الأعلام . وكانت أمه خوارزمية . ولد سنة ثمان عشرة ومائة (١١٨هـ) . فطلب العلم وهو ابن عشرين سنة .

وبعد أن تحدَّث عن شيوخه الذين أخذ عنهم ، وتلاميذه الذين رووا عنه ، قال : وصنَّف التصانيف النافعة الكثيرة .

وترجم له ابن كثير كذلك في كتابه (البداية والنهاية) ترجمة مركَّزة ، فقال :

عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن المَرْوَزِيُّ ، كان أبوه تركيًّا ، مولى لرجل من التجَّار من بني حنظلة من أهل همذان ، فكان ابن المبارك إذا قدِمها أحسن إلى ولد مولاهم ، وكانت أمه خُوارزميّة ، ولد سنة ثمان عشرة ومائة ، وسمع إسماعيل ابن أبي خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحميدًا الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين . وحدّث عنه خلائق من الناس ، وكان موصوفًا بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة ، وله التّصانيف الحسان ، والشِّعر المتضمِّن حكمًا جمَّة ، وكان كثير الغزو والحج ، وكان له رأس مالٍ نحوُ أربعمائة ألف يدور يتّجر به في البلدان ، فحيث اجتمع بعالم بلدة أحسن إليه ، وكان يربو كسبُه في كل سنة على مائة ألف ، ينفقها كلها في أهل العلم والعبادة ، وربما أنفق من رأس المال[1] .

قال سفيان بن عيينة : نظرتُ في أمره وأمر الصحابة ، فما رأيتهم يفْضُلون عليه إلا بصُحبتهم رسول الله ﷺ[2] .

---

(١) البداية والنهاية (١٣/٦١٠) .

(٢) تاريخ بغداد (١٠/١٦٣) ، وتاريخ دمشق (٣٨/٣٢١) ، والمنتظم (٩/٥٨ ، ٥٩) .

وقال إسماعيل بن عيَّاش : ما على وَجْه الأرض مثله ، وما أعلم خَصْلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك ، ولقد حدّثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة ، فكان يطعمهم الخبيص ، وهو الدّهرَ صائم[1].

أبواب الخير عند ابن المبارك :

وقال مولى ابن المبارك : اجتمع جماعة مثل الفضْل بن موسى ، ومَخْلد ابن الحسين ، فقالوا : تعالوا نعدّ خصال ابن المبارك من أبواب الخير ، فقالوا : العلم ، والفقه ، والأدب ، والنحو ، واللغة ، والزهد ، والفصاحة ، والشعر ، وقيام الليل ، والعبادة ، والحج ، والغزو ، والشجاعة ، والفروسية ، والقوة (الشدة في الجسم) ، وترك الكلام فيما لا يعنيه ، والإنصاف ، وقلة الخلاف على أصحابه[2].

منزلته بين العلماء :

لم يبلغ عالم من سُموِّ المقام ، وعُلو المنزلة ، ما بلغه عبد الله بن المبارك بين علماء الأمة في مشرقها ومغربها ، مع أنه كان من الموالي ، فأبوه تركي ، وأمه خوارزمية . لم يشذّ عن ذلك محدِّث أو فقيه أو أديب أو مؤرخ .

قال الأوزاعي لعبد الرحمن بن يزيد الجهضمي : رأيت ابن المبارك؟ قال : لا ، قال : لو رأيته لقرَّت عينك[3].

وقال عبد العزيز بن أبي رزمة : قال لي شعبة : عرفت ابن المبارك؟ قال : نعم ، قال : ما قدم علينا من ناحيتكم مثله[4].

وقال إسماعيل بن عيَّاش : ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك[5].

وقال أبو أسامة : كان ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس[6].

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/١٥٧) ، وتاريخ دمشق (٣٨/٣٣٢) ، والمنتظم (٩/٥٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/٣٩٧) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٢) .

(٤) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٥٧) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤١٣) .

(٥) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٢٦) .

(٦) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٥٦) .

وقال محمد بن عبد الوهاب الفرَّاء : ما أخرجت خراسان مثل هؤلاء الثلاثة : ابن المبارك ، والنضر بن شميل ، ويحيى بن يحيى[١].

وقال ابن مهدي : ما رأيت رجلاً أعلم بالحديث من الثوري ، ولا أحسن عقلاً من مالك ، ولا أقشف من شعبة ، ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك[٢].

وكان يقول : كان ابن المبارك أعلم من الثوري[٣].

قيل لابن مهدي مرَّة : أيهما أفضل عندك ، ابن المبارك أو سفيان الثوري؟ فقال : ابن المبارك ، فقيل : إنَّ الناس يخالفونك ، قال : إنَّ الناس لم يجرِّبوا[٤].

وقدم ابن مهدي بغداد في بيع دار له ، فاجتمع إليه أصحاب الحديث ، فقالوا له : جالست سفيان الثوري وسمعتَ منه ، وسمعتَ من عبد الله ، فأيهما أرجح؟ فقال : ما تقولون لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يومًا مثل عبد الله لم يقدر[٥].

وقال سفيان نفسه : إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله ابن المبارك ، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام[٦].

وكان أبو إسحاق الفزاري يقول : ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين ـ قال الذهبي : أي في زمانه ـ وقال المسيب بن واضح ، ورأيت أبا إسحاق بين يدي ابن المبارك قاعدًا يسائله[٧].

وهل تدري من أبو إسحاق هذا؟ هو من كان الأوزاعي يقول فيه : إنه والله خير مني ، وقال أبو داؤد الطيالسي : ما على وجه الأرض أفضل منه[٨].

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٥٥) .
(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٢١) .
(٣) انظر : تاريخ الإسلام (١٢/٢٢٣) .
(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤١٩) .
(٥) المصدر السابق (٣٢/٤٢٠) .
(٦) المصدر السابق (٣٢/٤١٢) .
(٧) المصدر السابق (٣٢/٤١٧) .
(٨) انظر : تاريخ الإسلام للذهبي (١٢/٥٨) .

ونُعي ابن المبارك إلى ابن عُيينة ، فقال : لقد كان فقيهًا ، عالمًا ، عابدًا ، زاهدًا ، سخيًّا ، شجاعًا ، شاعرًا[١].

ونُعي إلى الفضيل بن عياض ، فقال : رحمه الله أما أنه ما خلَّف بعده مثله[٢].

وقال شعيب بن حرب: ما لقي ابن المبارك رجلاً إلا وابن المبارك أفضل منه[٣].

وقال الحاكم : هو إمام عصره في الآفاق ، وأولاهم بذلك علمًا ، وزهدًا ، وشجاعة ، وسخاء[٤].

وقال النسائي : لا نعلم في عصر ابن المبارك أجل من ابن المبارك ، ولا أعلى منه ، ولا أجمع لكل خَصْلة محمودة منه[٥].

وقال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على قَبوله ، وجلالته ، وإمامته ، وعدله[٦].

وقال الأسود بن سالم : إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتَّهمه على الإسلام[٧].

وقال الخليلي في «الإرشاد» : ابن المبارك الإمام المتفق عليه ، له من الكرامات ما لا يُحصى[٨].

وقال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» : الإمام الحافظ العلامة ، شيخ الإسلام ، فخر المجاهدين ، قدوة الزاهدين ، وقال في ترجمته : والله إني لأحبه وأرجو الخير بحبه ، لما منحه الله من التقوى ، والعبادة ، والإخلاص ، والجهاد ، وسَعَة العلم ، والإتقان ، والمواساة ، والفتوَّة ، والصفات الحميدة[٩].

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤١٥) .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤١٧) .

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٢٥) .

(٤) انظر : تهذيب التهذيب (٥/٣٣٧) .

(٥) المصدر السابق (٥/٣٣٨) .

(٦) انظر : البداية والنهاية (١٣/٦١٣) .

(٧) انظر : تهذيب التهذيب (٥/٣٣٨) .

(٨) المصدر السابق (٥/٣٣٧) .

(٩) تذكرة الحفاظ (١/٢٥٤) .

وأنا (القرضاوي) أقول ما قال الإمام الذهبي : والله إني لأحبه وأرجو الخير بحبِّه ، وأحبُّ مَنْ يحبُّه ، وأتقرَّب إلى الله بحبِّه ، وأدعو الله أن يحشرنا معه تحت راية محمد ﷺ .

ملك غير مُتوَّج :

وقد قدم مرَّة إلى الرَّقة ، وبها هارون الرشيد ، فلما دخلها انجَفَل الناس يُهرعون إلى ابن المبارك ، وازدحم الناس حَوْله ، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت : ما للناس؟ فقيل لها : قدم رجل من علماء خراسان يقال له : عبد الله ابن المبارك ، فانجفل الناس إليه . فقالت المرأة : هذا هو الملك ، لا ملكُ هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسَّوط والعَصَا والرغبة والرهبة[1].

شعر ابن المبارك :

قال الذهبي : وقد كان ابن المبارك رحمه الله شاعرًا ، محسنًا ، قوَّالاً بالحق .

وهو كذلك . ففي شعره كثير من الحكم والمواعظ ، ووصف آفات الأنفس ، ومداخل الشيطان إليها ، وقد روى شعره المتصوفة وأرباب السلوك ، ومن شعره :

رأيتُ الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبارُ سوء ورهبانُها؟
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي اللب إنتانها!

وروى إسحاق بن سنين لابن المبارك :

إني امرؤ ليس في ديني لغامزه ... لِينٌ ولست على الإسلام طعَّانا
فلا أسُبُّ أبا بكر ولا عمرا ... ولن أسب مَعَاذَ الله عثمانا
ولا ابن عمِّ رسول الله أشْتِمُه ... حتى أُلَبَّس تحت التُّرب أكفانا
ولا الزُّبَير حواريِّ الرسول ولا ... أُهدي لطلحة شَتْمًا عزَّ أَوْهانا
ولا أقول عَلِيٌّ في السَّحاب إذَنْ ... قد قُلتُ والله ظُلمًا ثُمَّ عدوانا

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٤٧) .

ولا أقول بقـــول الجَهْـــم إنَّ لـــه قولاً يضارع أهل الشرك أحيانـــا
ولا أقـــول تخلـــى مـــن خليقتـــه رب العباد وولى الأمـــر شـــيطانا
ما قال فرعـــون هـــذا في تمـــرُّده فرعون موسى ولا هامان طغيانـــا
الله يـــدفع بالســـلطان معضـــلة عن ديننـــا رحمةً منـــه ورضـــوانا
لولا الأئمة لم تـــأمن لنـــا ســـبل وكان أضـــعفنا نـــهبًا لأقوانـــا

يقال : إن الرشيد أعجبه هذا ، فلما أن بلغه موت ابن المبارك بهيت[1] قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . يا فضل : إيذن للناس يُعَزُّونا في ابن المبارك . وقال : أما هو القائل :

الله يدفع بالسلطان معضلة . . .

فمن الذي يسمع هذا من ابن المبارك ، ولا يعرف حقَّنا[2]؟

معالم الزهد عند ابن المبارك :

وللزهد وسلوك طريق الآخرة عند ابن المبارك معالم تُميِّز طريقته عن طريقة غيره ، فهو ـ كما أشرنا من قبل ـ يلتقي مع إبراهيم بن أدهم في أشياء كثيرة ، ويختلف معه في بعض الأشياء .

وهنا نشير إلى معالم طريقته في الزهد والسلوك ، حتى تتبيَّن لنا الملامح الأساسية لهذه الطريقة ، وهذه الشخصية الربانية .

هذه المعالم هي :

١- تشدُّده في الورع .

٢- الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة .

٣- الاجتهاد في العبادة مع إخفائها .

٤- السخاء والتوسعة على أهل العلم .

---

(١) هيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد . انظر : معجم البلدان (٥/٤٢٠) .

(٢) انظر : سير اعلام النبلاء (٨/٤١٤) .

٥- سخاؤه في الجهاد والحج .

٦- الحرص على الجهاد والرباط .

٧- أدبه مع أصحابه ، وحُسن تربيته .

٨- الفقه في الدين وبثُّ العلم .

٩- البُعد عن أهل البدع وأهل السلطة .

ولنتحدث عن كلٍّ مَعْلَم من هذه المعالم بكلمة مناسبة .

١- تشدُّده في الورع :

كان لابن المبارك رحمه الله سلوك في الورع يذهب فيه مذهب التشديد على نفسه في تحرِّي الحلال ، ولا يتساهل في القليل ، خشية أن يجر إلى الكثير ، ويريد ألا يدخل عليه أيّ شيء فيه أدنى شبهة ، عالمًا بأنَّ من اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وهو يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه .

تنازله عن بستان خصّه به أبوه دون أخواته :

من ذلك أنه كان لأبي عبد الله بن المبارك بستان بمرو ، فنحله (عبد الله) ، فلما كبر عبد الله وترعرع وجالس أهل العلم وطلب العلم ، جاء إلى أخواته ، فقال لهن : إن أبانا كان صنع أمرًا لم ينبغ له أن يصنعه ، نحلني هذا البستان دونكنَّ ، وليس أحد أحق أن يخرج أباه ممَّا جعل فيه مني ، فقد رددت هذا البستان وجعلته ميراثًا بيننا على كتاب الله عز وجل ، فحلِّلوا أبانا ممَّا كان دخل فيه ، فقلن له : أنت في حِلّ ، وأبونا في حِلّ ، وهو لك كما كان والدنا نَحَلك ، قال : لا ، ولكنه ميراث بيننا فحلِّلوه ، فحلّلوه ، فتزوَّج عبد الله فولد له ابن ، فنحل الأخوات ابن عبد الله حصصهنّ من البستان ، فمات الغلام ، فورثه عبد الله ، فرجع إليه البستان كما كان أبوه نحله[1] .

وفي هذا عبرة لمن تدبّر ، فإنَّ الرزق لا ينقص إذا عرف الإنسان حق الله فيه ، وتورَّع عما فيه من شبهات .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٦٨/١) .

من عجائب ورعه :

ومن عجيب ورعه : أنه استعار قلمًا من رجل بأرض الشام ، فنسيه وذهب عليه أن يرده إلى صاحبه ، فلما قدم بلده مرو نظر فإذا القلم معه ، فرجع إلى أرض الشام حتى رده على صاحبه[١].

وقال له رجل : احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله ، فقال : حتى استأمر الحمّال فإني قد اكتريت . فانظر كيف تورَّع من استصحاب كتاب لا وزن له ، وهو طريق الحزم في الورع ، فإنه إذا فتح باب القليل انجرَّ إلى الكثير يسيرًا يسيرًا[٢].

وروي أنه خرج إلى الغزو فنزل إلى نهر ، ونصب رمحه وربط فرسه ، فتوضأ وشرع في الصلاة ، فلما سلَّم رأى أن فرسه انفلت يأكل الزرع ، فقال : إنه أكل حرامًا فلا ينبغي أن يغزى عليه ، وتركه لصاحب الزرع ، واشترى فرسًا أخرى وقضى سبيله[٣].

وكان لا يأكل من كسْب غلامه إذا باع شيئًا ، وصلَّى على النبي ﷺ عند بيعه ، فكان يقول : إنك أطريت عليه بالصلاة على رسول الله ﷺ ، ومدحته بها حتى اشتراه الناس[٤]. فهو يرى أنَّ الصلاة على رسول الله عبادة ، لا ينبغي أن تستغل في ترويج السلع والمبيعات .

وكان لا يصلِّي بمرو في المسجد الجامع إلا الجمعة لا يرى أن يتطوع فيه بسبب أن أبا مسلم كان قد اغتصب منه شيئًا[٥].

وقال الحسن : رأيت في منزل ابن المبارك حمامًا طائرة ، فقال ابن المبارك : قد كنا ننتفع بفراخ هذه الحمام ، فليس ننتفع بها اليوم ، قلت : ولم ذلك ؟

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٦٧) .

(٢) إحياء علوم الدين (١/٢٣٨) .

(٣) كنوز الأولياء صـ ١٨٦ .

(٤) تنبيه المغترين صـ ١٢١

(٥) رواه أحمد في الورع صـ ٢٥ .

قال : اختلطت بها حمام غيرها، فتزاوجت بها، فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك[1].

ردُّ ما فيه شبهة أعظم من الصدقة بأضعافه :

ومن أقواله في الورع ، قوله : لأن أرد درهمًا من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى يبلغ ستمائة ألف[2].

ويقول : لأن أتصدق بدرهم من حلال أحب إليّ من أتصدَّق بستين درهمًا من شبهة[3].

وقال عن الورع : لو أن رجلاً أنفق مائة شيء ، ولم يتورَّع عن شيء واحد لم يكن ورعًا ، ومن كان فيه ضلة من الجهل كان من الجاهلين ، أما سمعتَ الله تعالى يقول لنوح عليه السلام : ﴿ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (هود:٤٥) ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (هود:٤٦)[4].

منهجه في الزهد :

قال علي بن الفضيل : سمعتُ أبي يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل ، والبُلغة ، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام ، كيف ذا ؟ فقال ابن المبارك : يا أبا علي! إنما أفعل ذا لأصون به وجهي ، وأكرم به عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي . لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به ، قال له الفضيل : يا ابن المبارك! ما أحسن ذا ، إن تمَّ ذا[5].

ومن فقهه في الزهد : أنه إذا اشتهت نفسه شيئًا لا يحرِّمه على نفسه ، ولكن يأكل مع إخوانه فيشركهم معه ، حتى لا ينفرد هو بما يشتهي .

---

(١) انظر : صفة الصفوة (١٣٦/٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الورع (٢٠٦) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٨٠/١) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٧/٨) .

(٥) رواه البيهقي في الشعب (١٢٦٦) .

تجارته وضربه في الأرض :

كان ابن المبارك تاجرًا ، كما كان بعض الصحابة تجارًا مثل أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان وغيرهم . والإسلام لم يذم التجارة ، ولكنه حذَّر من أن تشغل صاحبها عن التجارة التي لا تبُور ، وهي المذكورة في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر:٢٩،٣٠).

وأعتقد أنَّ عبد الله بن المبارك ، وإن اشتغل بتجارة الدنيا لم تلهه عن تجارة الآخرة . وأنه من الرجال الذين قال الله فيهم : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (النور:٣٧).

ولاسيما أن تجارة الدنيا لم تنسه أربح تجارة في الدنيا والآخرة ، وهي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف:١٠،١١).

وقد قدر رأس مال ابن المبارك ب ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف درهم ، وهذا مبلغ كبير بالنسبة للقوة الشرائية للنقود ، وكانت تدر عليه سنويا حوالي ١٠٠٠٠٠ مائة ألف درهم . كان ينفقها كلها على طلبة العلم وأهل الحديث ، ويفرِّج بها كربة المكروبين ، وربما أنفق من رأسماله .

وقد قال للفضيل بن عياض : لولا أنت وإخوانك ما اتَّجرت[1].

وقيل له : لم لا تنفق أموالك في بلدك ، وتخرج أكثرها إلى بلاد أخرى؟ فقال : إني أعرف مكان قوم لهم فَضْل وصدق ، طلبوا الحديث ، فأحسنوا طلبه لحاجة

---

(١) انظر : الثقات لابن حبان (٨/٧) .

الناس إليهم ، احتاجوا ، فإن تركناهم ، ضَاعَ علمهم ، وإن أعنّاهم ، بثُّوا العلم لأمة محمد ﷺ ، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بثِّ العلم[1].

٢- الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة :

ومن معالم زهده : خشيته الله تعالى ، والخوف من حسابه ، وذكر الموت ، والدار الآخرة .

قال نُعيم بن حمَّاد : كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق ، يصير كأنه ثور منحور ، أو بقرة منحورة ، من البكاء ، لا يجتزئ أحدٌ منا أن يسأله عن شيء إلا دفعه[2].

وقال أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب : سمعتُ الخليل أبا محمد ، قال : كان عبد الله بن المبارك إذا خرج إلى مكة قال :

بُغض الحياة وخوف الله أخرجني ... وبيع نفسي بما ليست له ثمنا

إني وَزنتُ الذي يبقى ليَعْدلَه ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتَّزَنَا[3]

وقيل لابن المبارك : إنَّ رجلاً ختم القرآن في ركعة! فقال ابن المبارك : ولكني أعرف رجلاً ظلَّ ليلة كاملة لم يغادر : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ (التكاثر:١) ! يعني نفسه[4].

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن ابن وهب قال : رأى رجل سهيل بن علي في المنام ، فقال : ما فعل بك ربك ؟ قال : نجوت بكلمة علَّمنيها ابن المبارك . قلت له : ما تلك الكلمة ؟ قال : قول الرجل : يا رب عفوك عفوك[5].

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٦٠) .

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٩٨٦) .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٦٦) .

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٣٥) .

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٧١) .

وقد روى بسنده عن النبي ﷺ من طريق شداد بن أوس : « الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت »[1].

وروى عنه كذلك من حديث أبي هريرة : « ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ، وما رأيت مثل النار نام هاربها »[2].

وعن القاسم بن محمد قال : كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي : بأي شيء فضّل هذا الرجل علينا ، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلِّي إنا لنصلِّي ، وإن كان يصوم إنا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزو ، وإن كان يحج إنا لنحج . قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام نتعشى في بيت ، إذ أطفئ السراج ، فقام بعضنا فأخذ السراج ، وخرج يستصبح ، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج ، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع ، فقلت في نفسي : بهذه الخشية فضّل هذا الرجل علينا ، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ، ذكر ظلمة القيامة[3].

وعن الفضيل بن عياض قال : قال ابن المبارك : أكثركم علمًا ينبغي أن يكون أشدكم خوفًا ، وقال لي ابن المبارك : استعد للموت ولما بعد الموت ، قال الفضيل : فشهق علي شهقة ، فلم يزل مغشيا عليه عامة الليل[4].

وقد روى في كتابه (الزهد) عن ابن مسعود قوله : كفى بخشية الله علمًا ، وكفى باغترار بالله جهلا[5].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧١٢٣)، وقال مخرّجوه : إسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وباقي رجال الإسناد ثقات، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٩)، وقال : حديث حسن ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠) ، والحاكم في المستدرك كتاب التوبة (٤/٢٨٠) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٧٤) ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٦٣٨) ، والبيهقي في الشعب (٣٨٩) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٧٨) .

(٣) انظر : صفة الصفوة (٤/١٤٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٨) .

(٥) الزهد (٤٦) .

٣- الاجتهاد في العبادة مع إخفائها :

وكان ابن المبارك مجتهدًا في عبادة الله تعالى ، ويجد فيها قرَّة عينه ، وسعادة قلبه ، فالحياة الحقيقية عنده هي حياة الروح ، وهي روح الحياة ، لا حياة البطن والشهوات .

وكان يقول عن أهل الملك وأهل الثروة : مساكين هؤلاء ، خرجوا من الدنيا ولم ينعموا بأطيب ما فيها ! قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل .

وكان يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ولا يكاد أحد يراه صائمًا .

قال قطن بن سعيد : ما أفطر ابن المبارك قط ، ولا رُئي صائمًا قط[١]! يعني أنه كان لا يتظاهر بالصيام ، ولا يحس به أحد .

روى الفضيل بن محمد الشعراني ، قال حدَّثنا عبدَة بن سليمان ، قال : سمعتُ رجلاً يسأل ابن المبارك عن الرجل ، يصوم يومًا ويُفطر يومًا . قال : هذا رجل يضيع نصف عمره ، وهو لا يدري . يعني : لم لا يصومها[٢].

قال الذهبي : أحسب ابن المبارك لم يذكر حينئذ حديث : « أفضل الصوم صوم داود »[٣] ولا حديث : النهي عن صوم الدهر .

قلت (القرضاوي) : ومن المعلوم أن هناك من السلف من صاموا الدهر ـ إلا الأعياد ـ ولهم في ذلك تأويلات .

وقال نُعيم : ما رأيت أعقل من ابن المبارك ، ولا أكثر اجتهادًا في العبادة[٤].

وعن عبد الكريم السُّكَّري قال : كان عبد الله يعجبه إذا ختم القرآن أن يكون دعاؤه في السجود[٥].

---

(١) رواهما أبو نعيم في الحلية (١٦٧/٨) .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٤٠٦/٨) .

(٣) سبق تخريجه صـ ٢٤٨ .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٥٩/٦) .

(٥) رواه البيهقي في الشعب (٢٠٨٨) .

ومع هذا كان يستقلُّ طاعته وعبادته ، بالنظر إلى حقِّ الله تعالى عليه ، ويخاف على نفسه من العجب ، وهو يراه شرَّ الذنوب ، قال أبو وَهْب المروزي : سألت ابن المبارك : ما الكِبْر؟ قال : أن تزدري الناس . فسألته عن العُجْب ؟ قال : أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك ، لا أعلم في المصلِّين شيئًا شرًّا من العُجْب[1].

٤- سخاؤه وتوسعته على إخوانه من أهل العلم :

ومن معالم زهده : سخاؤه الذي عُرف به ، وخصوصًا على إخوانه من أهل الحديث ، وطَلَبة العلم . فكان يتقرَّب إلى الله بإكرامهم ، ويسعى إلى إعانتهم بالمطعومات الطيِّبة ، والحلويات الشهيَّة ، التي لا يجدونها في بيوتهم ، ولاسيما في رحلاته وأسفاره معهم ، في طلب العلم ، أو الحج ، أو الجهاد .

قال حبان بن موسى : رأيت سُفْرة ابن المبارك حُمِلَت على عَجَلة .

وقال أبو إسحاق الطالْقاني : رأيت بعيرين محمَّلين دجاجًا مشويًا لسُفرة ابن المبارك .

وروى عبد الله بن عبد الوهاب ، عن محمد بن عبد الرحمن بن سَهْم ، قال : كنت مع ابن المبارك ، فكان يأكل كل يوم ، فيُشوى له جَدْي ، ويتَّخذ له فالوذق[2]. فقيل له في ذلك . فقال : إني دفعتُ إلى وكيلي ألف دينار ، وأمرته أن يوسِّع علينا .

قال الحسن بن حمَّاد : دخل أبو أسامة على ابن المبارك ، فوجد في وَجْهه أثر الضُرِّ ، فلمَّا خرج ، بَعَث إليه أربعة آلاف درهم ، وكتب إليه :

وفتى خالٍ من ماله ... ومن المروءة غير خال
أعطاك قَبْلَ سُؤاله ... وكَفَاكَ مكروهَ السؤال

وقال المُسيِّب بن واضح : أرسل ابن المبارك إلى أبي بكر بن عيَّاش أربعة آلاف درهم ، فقال : سُدَّ بها فتنة القوم عنك .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٧) .

(٢) الفالوذق ، كالفالوذج نوع من الحلوى تُسوَّى من لب الحنطة ، فارسي معرب .

قال علي بن خَشْرَم : قلت لعيسى بن يونس : كيف فَضَلكم ابن المبارك ، ولم يكن بأسنَّ منكم؟ قال : كان يقدم ، ومعه الغِلْمة الخراسانية ، والبِزَّة الحسنة ، فيصِل العلماء ، ويُعطيهم ، وكنَّا لا نَقْدِر على هذا .

قال نُعَيم بن حَمَّاد : قَدِم ابن المبارك أيْلَة على يونس بن يزيد ، ومعه غلام مُفرَّغ لعمل الفالوذج ، يتَّخذه للمحدثين[1] .

وسأله مرة سائل ، فأعطاه درهمًا ، فقال له بعض أصحابه : إنَّ هؤلاء يأكلون في غدائهم الشواء والفالوذَج ، وقد كان يكفيه قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الشواء والفالوذج ، فلا بدَّ من عشرة دراهم ! يا غلام : ردَّه وأعطه عشرة دراهم[2] .

٥- سخاؤه في الحج والجهاد :

وكان أظهر ما يكون سخاؤه إذا سافر مع أصحابه لحج أو جهاد ، فهو يؤثرهم على نفسه ، ويبالغ في إكرامهم وإعانتهم على أداء طاعة الله عز وجل . وكانت سُفرته تُحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، يُطعمه وهو صائم لله عز وجل في الحر الشديد .

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم على الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم ، ويكتب على كل صُرَّة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب ، وحسن الخُلُق والتيسير عليهم ، فإذا قضوا حجَّتهم يقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصَّاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها ، فإذا جاءوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فإذا قفلوا بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبُيِّضت أبوابها ورُمِّم شَعَثُها ، فإذا رجعوا إلى أوطانهم عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه ، وأخرج منه تلك الصُّرر ، كل صرة عليها اسم صاحبها . ثم يُقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٩، ٤١٠) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (١٣/٦١٢) .

التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم ، وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل[1].

وأورد الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ما حدث به عمر بن حفص الصُّوفي بِمَنْبِجَ ، قال : خرج ابن المبارك من بغداد ، يريد المَصِّيصة ، فصحبه الصوفية ، فقال لهم : أنتم لكم أنفس تَحْتَشِمون أن يُنفقَ عليكم . يا غلام هات الطَّست ، فألقى عليه منديلاً ، ثم قال : يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه ، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم ، والرجل يلقي عشرين ، فأنفق عليهم إلى المصِّيصة ، ثم قال : هذه بلاد نفير . فنقسم ما بقيَ ، فجعل يعطي الرجل عشرين دينارًا ، فيقول : يا أبا عبد الرحمن ، إنما أعطيت عشرين درهمًا ، فيقول : وما تُنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته[2].

٦- الحرص على الجهاد والرباط :

كما اعتاد ابن المبارك على بذل العلم للناس ابتغاء وجه الله ، وبذل المال لأهل الحاجة ، ولاسيما من طلاب العلم ، وأهل الحديث لله تعالى ، اعتاد كذلك بذل النفس والروح لإعلاء كلمة الله جل جلاله . ولذا كان الرباط والجهاد جزءًا لا يتجزأ من حياته .

وكان له في الجهاد من روائع البطولات ما يستحقُّ أن يُحكى ويُروى ويُعْلَن ، ولكنه كان حريصًا كلَّ الحرص أن يصنع ذلك سرًّا ، لوجه الله وحده ، ولا يُشعر به أحدًا ، حتى يكون جهاده خالصًا لله . وكانت دولة الروم البيزنطية تهدد المسلمين باستمرار ، ولذا كان كثير من العلماء والصالحين يرابطون على الثغور ، أي على حدود الدولة الإسلامية مع الدولة الرومية ، ولاسيما الثغور المخوفة ، فيقيمون فيها تحسُّبًا لأيِّ اعتداء ، فينادي المنادي ، فيهمون سراعًا لملاقاة الأعداء .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٣/٦١١) .

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٥٧، ١٥٨) ، وانظر سير أعلام النبلاء (٨/٣٨٥) .

قتله ستة من العلوج وحرصه على إخفاء العمل :

قال محمد بن المثنى : حدثنا عبد الله بن سِنَان قال : كنت مع ابن المبارك ، ومُعتمر بن سليمان بطَرَسُوس ، فصاح الناس : النفير ، فخرج ابن المبارك والناس ، فلما اصطفَّ الجمعان ، خرج روميّ ، فطلب البراز ، فخرج إليه رجل ، فشدَّ العِلْجُ عليه فقتله ، حتى قتل ستة من المسلمين ، وجعل يتبختر بين الصفَّين يطلب المبارزة ، ولا يخرج إليه أحد ، فالتفت إليَّ ابن المبارك ، فقال : يا فلان ، إن قُتلت فافعل كذا وكذا ، ثم حرَّك دابته ، وبرز للعلج ، فعالج معه ساعة ، فقتل العِلجَ ، وطلب المبارزة ، فبرز له علج آخر فقتله ، حتى قتل ستة علوج ، وطلب البراز ، فكأنهم كاعوا عنه ، فضرب دابَّته ، وطرد بين الصفَّين ، ثم غاب ، فلم نشعر بشيء ، وإذا أنا به في الموضع الذي كان ، فقال لي : يا عبد الله لئن حدثت بهذا أحدًا ، وأنا حي ، فذكر كلمة[1] . يعني كلمة تشعر بغضبه عليه إذا أفشى سره .

وهكذا نراه لم يكن مجرَّد مشارك في الجهاد ، يكثّر السواد ، ويحرض الآخرين ، بل رأيناه بطلاً من الأبطال ، وفارسًا من أكابر الفرسان ، وإن كان لا يحب أن يشار إليه بالبنان ، ولهذا كانوا يعتبرون (الفروسية) من فضائله .

وقصة أخرى من قصص بطولاته الجهادية التي كان يجتهد في إخفائها حتى لا تعرف ، أوردها الذهبي في (أعلامه) وهي ما رواه أبو حاتم الرازي ، قال : حدثنا عبدة بن سليمان المروزي قال : كنَّا في سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفَّان ، خرج رجل من العدو ، فدعا إلى البِراز ، فخرج إليه رجل فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم دعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة فطعنه فقتله ، فازدحم إليه الناس ، فنظرت فإذا هو عبد الله ابن المبارك ، وإذا هو يكتم وجهه بكمه ، فأخذت بطرف كمه فمددته ، فإذا هو هو! فقال : وأنت يا أبا عمرو ممَّن يشنِّع علينا[2]!!

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٨، ٤٠٩) .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٣٩٤) .

دعوته للفضيل بن عياض للَّحاق به في الجهاد :

وقد كان في الجهاد يحدّث الناس ويعلّمهم ، ويسخو على مَنْ حوله ، مع اجتهاده في العبادة ، وقد كتب إلى أخيه في الله الورع الزاهد العابد المشهور الفضيل ابن عياض ، يُغْريه باللحاق به في الجهاد . قال الذهبي : روى عبد الله بن محمد قاضي نَصيبين ، حدَّثنا محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة ، قال : أملى عليَّ ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومائة ، وأنفذها معي إلى الفُضَيل بن عياض من طرسوس :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا	لعلمتَ أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خدَّه بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب[1]
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم ، فقرأه وبكى ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح[2] .

٧- أدبه مع أصحابه وحسن تربيته لتلاميذه :

وكان مع أصحابه مثلاً عاليا للأدب الرفيع ، يوقِّر كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، ويأخذ بيد ضعيفهم ، ويتعلم من علمائهم ، ويعلّم من طلب العلم منهم ، ويؤدب من أخطأ برفق .

قال عبيد بن جناد : ما رأيتُ أحدًا مثل ابن المبارك ، إذا ذكر أصحابه فخَّمهم ، يقول : وأين مثل فلان؟ ثم يقول : الرفيع مَنْ يرفعه الله بطاعته ، والوضيع مَن وضعه[3] .

---

(١) الرَّهْج والرَّهَج : الغبار ، والسنابك جمع سنبك طرف حافر الخيل وجانباه من قدام .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤١٢) . وتقدم ذكر الأبيات والرد على من شكَّك في صحة نسبتها لابن المبارك صـ١٩٠ .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٩) .

أدبه مع حمَّاد بن زيد :

وكان يُقدِّر شيوخه ، ويعرف منزلتهم ، ويُعطيهم حقَّهم من التوقير . وقد نوَّه المؤرِّخون بأدبه مع حمَّاد بن زيد حين قدم عليه . قال إسماعيل الخُطَبي : بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حمَّاد بن زيد ، فقال أصحاب الحديث لحمَّاد : سل أبا عبد الرحمن أن يحدِّثنا . فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تحدِّثهم ، فإنهم قد سألوني؟ قال : سبحان الله ، يا أبا إسماعيل أُحدِّثُ وأنت حاضر؟! فقال : أقسمتُ عليك لتفعلنَّ . فقال : خذوا . حدَّثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد . . . فما حدَّث بحرف إلا عن حماد[1].

وسُئل مرَّة : مَن الأئمة؟ فقال : سفيان وأصحابه .

وقال : قد جمعتُ علم العلماء ، فليس فيما جمعتُ أحب إليَّ من علم الفضيل ابن عياض[2].

وحدَّث ابن حميد قال : عطس رجل عند ابن المبارك ، فلم يحمد الله ، فقال ابن المبارك : إيش يقول العاطس إذا عطس؟ قال : يقول : الحمد لله ، فقال له : يرحمك الله! قال ابن حميد : فعجبنا كلُّنا من حسن أدبه[3].

في مجلس مالك بن أنس :

وقال يحيى بن يحيى الأندلسي : كنا عند مالك ، فاستؤذن لابن المبارك ، فأذن له ، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه ، ثم أقعده بلصقه ، ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره ، فكان القارئ يقرأ على مالك ، فربما مرَّ بشيء فيسأله مالك : ما عندكم في هذا؟ فكان عبد الله يجيبه بالخفاء ، فأعجب مالك بأدبه ، ثم قال لنا : هذا ابن المبارك فقيه خراسان[4] . وقال : ابن المبارك عندنا آدب من سفيان .

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٥٥) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٤٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٨) .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/١٥٥) .

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤٢٠) .

وقال ابن المبارك : كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين[1].

وقال أيضا : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدِّبون[2].

حسن تربيته وتأديبه لتلاميذه :

ولم يكن ابن المبارك مثل كثير من المحدّثين ، همّه أن يكثر من الرواية ، وأن يطلب علو الأسانيد ، بل كان محدّثا ومربيًا في الوقت نفسه ، يُعنى بإصلاح عيوب تلاميذه وأصحابه ، وينبّههم على خطئهم ، وقد يؤدبهم عليه .

فقد امتنع أن يكلم أحدهم ثلاثين يومًا ؛ لأنه أكل على مائدة صاحب بدعة . وهذا نوع من الزجر بالهجر ، والتأديب بالمقاطعة . وقد خاصم ابن عُلية حينما تولى القضاء ، حتى استعفى منه وتركه ، فعاد إلى وصله[3].

وكان يرى أن التربية تنفع مع العدد القليل ، أما الجم الغفير والحلقة الواسعة فلا تصلح لهذا .

وكان يقول : الحديث مع الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة ، فإذا عظمت الحلقة ، فأنصت أو انشز[4].

وقال بشر بن الحارث (الحافي) : سأل رجل ابن المبارك عن حديث ، وهو يمشي ، فقال : هذا ليس من توقير العلم . قال بشر : فاستحسنته جدًّا[5].

وسأل بعضهم ابن المبارك فقال : إنا نقرأ بهذه الألحان! فقال : إنما كره لكم منها ، إنا أدركنا القراء ، وهم يؤتون تسمع قراءتهم ، وأنتم تُدْعَون اليوم كما يُدْعى المغنون[6]!

فزجرهم إلا أن يعطوا القرآن حقه من التعظيم والتوقير . فكيف لو رأى زماننا؟!

---

(١) انظر : صفوة الصفوة (٤/١٤٥) .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٤٥) .

(٣) انظر : ابن أبي يعلي في طبقات الحنابلة (١/١٠٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٩) .

(٥) المصدر السابق (٨/١٦٦) .

(٦) المصدر السابق (٨/١٦٩) .

٨- الفقه في الدين وطلب العلم وبثه :

ومن معالم طريقته : الفقه في الدين ، سعيًا إليه وطلبًا له ، استجابةً لقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ (التوبة:١٢٢)، وتحصيلاً لما بشَّر به رسول الله ﷺ «مَن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[(١)] ثم نشره بعد ذلك وتعليمه للناس ، والسعي في طلب العلم ، والتفقه فيه ، وفي طلب الحديث ، وقد رحل في سبيل ذلك إلى أقطار شتى ، ليلتقي الشيوخ ويأخذ عنهم ، حتى إنه قال : حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ ، ثم رويت عن ألف منهم . قال العباس بن مصعب : وقع لي من شيوخه ثمانمائة[(٢)].

وقال أصحابه : ما رأينا أطلب للعلم منه . وكان يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبيِّ وأصحابه[(٣)]؟!

وقال علي بن الحسين بن شقيق : قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث ، أو ذاكرته ، فمازلنا نتذاكر ، حتى جاء المؤذن للصبح[(٤)].

كتابته للعلم :

وكان يكتب ما يسمعه ، برغم قوة حفظه ، وقد قيل : العلم صيد ، والكتابة قيد . وكتب عمن هو أصغر منه .

ومما رووا عنه : أنه كان في الطريق ، فسمع سكران ينشد :

أذلَّني الهوى فأنا الذليلُ وليس إلى الذي أهوى سبيل

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧) ، وأحمد في المسند (١٦٨٨٣) ، عن معاوية .

(٢) انظر : تاريخ الإسلام (٢٢٤/١٢) .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٥٤/١٠) .

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٤٠٣/٨،٤٠٤) .

فأخرج عبد الله كراسته ليكتب البيت ، فقيل له : تكتب عن سكران؟ فقال : أما سمعتم المثل القائل : رب جوهرة في مزبلة! فهذه جوهرة خرجت من هذه المزبلة[1].

وقد كان يطلب الحديث ، والسيرة ، ويطلب الفقه ، ويطلب اللغة والأدب والتاريخ وأيام الناس .

قال الذهبي : حدَّث عنه خَلْقٌ لا يحصون ، من أهل الأقاليم ، فإنه من صباه ما فتر عن السفر[2].

وقد ظلَّ مستمرًا في طلب العلم ، ولم تمنعه مكانته في الناس أن يطلب العلم ، وقد سئل : إلى متى تطلب العلم ، فقال : لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد[3].

تفقُّهه بفقه أبي حنيفة :

وقد تفقه بفقه أبي حنيفة ، وهو يعدُّ من تلاميذه . وروي عنه قوله : أبو حنيفة أفقه الناس[4].

روى الطحاوي بسنده إلى ابن المبارك قال : سألت أبا حنيفة رضي الله عنه عن الرجل يبعث بزكاة بلده إلى بلد آخر! فقال : لا بأس أن يبعثها من بلده إلى بلد آخر لذي قرابة . فحدَّثت بهذا محمد بن الحسن ، فقال : هذا حسن ، وهذا قول أبي حنيفة ، وليس لنا في هذا سماع عن أبي حنيفة . قال : فكتبه عني : محمد بن الحسن عن ابن المبارك عن أبي حنيفة[5].

وقال ابن المبارك : كان أبو حنيفة يكره بيع المصحف[6].

وقال ابن المبارك : لا أعلم بعد النبوة أفضل من بثِّ العلم[7].

---

(١) انظر : المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي (٢/٣٢٠) .

(٢) انظر : تذكرة الحفاظ (١/٢٠٢) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١/٢٨٠) .

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٦/٤٠٣) .

(٥) انظر : طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء (١/٢٨٢) .

(٦) انظر : الجواهر المضيئة (١/٢٨٢) .

(٧) رواه البيهقي في الشعب (١٧٦١) .

طلب العلم الذي يعين على فهم القرآن :

ومن فقهه : أن رجلاً سأله : في أيّ شيء أجعل فضل يومي : في تعلم القرآن أو في طلب العلم ؟ فقال : هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟ قال : نعم . قال : فاجعله في طلب العلم الذي يُعرف به القرآن[1].

الجمع بين الأثر والرأي :

ورغم أنه تفقَّه على إمام مدرسة الرأي أبي حنيفة ، كان يؤثر الجمع بين الأثر والرأي ، فقال : ليكن الذي يعتمدون عليه هذا الأثر ، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الحديث .

وهو ما انتهى إليه صاحبا أبي حنيفة : أبو يوسف ومحمد ، فقد جمعا الأثر إلى الرأي ، ورجعا عن كثير من آراء إمامهما الأعظم ، لما تبيَّن لهما من الحديث والأثر .

على أنَّ الأثر يشمل أقوال الصحابة والتابعين ، وهي لا تخلو من دخول الرأي والاجتهاد فيها .

مذهبه في الحديث :

كان ابن المبارك إمامًا في الحديث ، باعتراف أئمته المعدودين ، كما ذكرنا . وكان له رؤيته ومذهبه في الحديث ، قبل أن يوضع علم مصطلح الحديث أو أصول الحديث .

فكان لا يقبل إلا الحديث المتصل الإسناد من مبدئه إلى منتهاه ، روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي إسحاق الطالْقاني ، قال : سألت ابن المبارك عن الرجل يُصلِّي عن أبويه . فقال : مَنْ يرويه؟ قلتُ : شهاب بن خراش . قال : ثقة . عمَّن؟ قلتُ : عن الحجاج بن دينار . قال : ثقة ، عمَّن؟ قلتُ : عن النبي ﷺ . قال : بينه وبين النبي ﷺ مَفَاوِزُ تنقطع فيها أعناق الإبل[2]!

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٥) .

(٢) ذكره مسلم في مقدمة صحيحه (١/١٦)، والمفاوز جمع مفازة : الأرض القفر البعيدة عن العمارة، وعن الماء التي يخاف الهلاك فيها .

وهو لا يكتفي بالاتِّصال ، بل لا بدَّ أن يكون ثقة عن ثقة . روى المسيَّب ابن واضح : أنه سمع ابن المبارك ، وسأله رجل عمَّن يأخذ ؟ فقال : قد يلقى الرجلُ ثقة ، وهو يحدث عن غير ثقة ، وقد يلقى الرجلُ غير ثقة يحدث عن ثقة ، ولكن ينبغي أن يكون : ثقة عن ثقة[1].

اعتماده على الكتابة أكثر من اعتماده على الحفظ :

وكان يعتمد على الكتاب أكثر ممَّا يعتمد على الحفظ ، وإن كان من أحفظ الناس ، وتروى عنه عجائب في الحفظ من صغره ، حتى إنه سمع خطبة فحفظها ، ثم أعادها كما سمعها !

ولما سئل عن كتابة العلم ، قال : لولا الكتاب ما حفظنا[2].

وكان يقول : الحبر في الثوب خلوق العلماء (أي هو طِيب كالمسك لهم)[3].

وقال الإمام أحمد : كان ابن المبارك يحدث من الكتاب ، فلم يكن له سقط كثير ، وكان وكيع يحدث من حفظه ، فكان يكون له سقط[4].

إنكاره التدليس في الحديث :

وكان ينكر التدليس في الحديث ، قال عبدان : قال ابن المبارك ، وذكر التدليس ، فقال فيه قولاً شديداً[5] ، ثم أنشد :

دلس للناس أحاديثه ... والله لا يقبل تدليسا[6]

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٤) .

(٢) رواه الخطيب في تقيد العلم صـ ١١٤

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٩) .

(٤) المصدر السابق (٨/٤٢١) .

(٥) التدليس : أن يروي الراوي عمن عاصره ما لم يسمع منه بصيغة لا تقتضي السماع ، أو يصف الشيخ الذي روى عنه بأوصاف لا تعرف ، وهو مذموم على الإطلاق ، حتى بالغ إمام الجرح والتعديل شعبة بن الحجاج ، فقال : لأن أزني أحبّ إليَّ من أن أدلس ، وقال : التدليس أخو الكذب ، والصحيح الذي رجَّحه أئمة الحديث وجهابذته : أن ما رواه الموصوف بالتدليس بلفظ محتمل لم يصرح فيه بالسماع لا يُقْبل ، وما صرَّح فيه بالسماع يقبل ، وهذا إذا كان المدلس ثقة في روايته .

(٦) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٤٣) .

في صحيح الحديث شغل عن سقيمه :

وكان يقول : في صحيح الحديث شغل عن سقيمه[1].

وهذا منهج قويم ، فعندنا من صحاح الأحاديث وحسانها ثروة هائلة ، تُغْنينا عن رواية الأحاديث الضعيفة ، ولو في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال . وقد تحدَّثْت عن هذا الموضوع بتفصيل في مقدمة كتابي (المنتقى من الترغيب والترهيب) وهو مذهب يحيى بن معين والبخاري وغيرهما .

وإن كان الحق يقال : إن ابن المبارك في باب الزهد والرقائق روى الضعيف أيضا كغيره .

أما الأحاديث المنكرة والموضوعة ، فهو لها بالمرصاد .

قيل له يومًا : هذه الأحاديث الموضوعة ! ـ يشكون من انتشارها ـ قال : تعيش لها الجهابذة ! وهو قطعًا واحد منهم ، الذين يستطيعون أن يفرزوا الخبيث من الطيب ، والصحيح من المغشوش .

فقهه للأولويَّات :

وخرج مرة إلى الحج ، فاجتاز ببعض البلاد ، فمات طائر معهم ، فأمر بإلقائه على مزبلة ، وسار أصحابه أمامه وتخلَّف هو وراءهم ، فلما مرَّ بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها ، فأخذت ذلك الطائر الميت ، فكشف عن أمرها وفحص ، حتى سألها ، فقالت : أنا وأختي هاهنا ، ليس لنا شيء إلا هذا الإزار ، وقد حلّت لنا الميتة ، وكان أبونا له مال عظيم ، فظُلم وأُخذ ماله وقُتل . فأمر ابن المبارك بردِّ الأحمال ، وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ فقال : ألف دينار . فقال : عُدَّ منها عشرين دينارا تكفينا إلى مَرْو ، وأعطها الباقي ، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام . ثم رجع[2].

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٤١) .

(٢) المنتظم (٩/٦٢) .

فهذا هو الفقه حقًّا ، فقه مراتب الأعمال ، أو الترتيب بين الخيرات بعضها وبعض ، أو ما سمَّيته (فقه الأولويات) . وليت المسلمين في عصرنا يتعلمون منه هذا الدرس : أن تفريج كربة مسلم ، أو حل مشكلة أسرة ، أفضل في ميزان الإسلام من حجِّ التطوع ، على ما له من فضل .

إيثاره للخلوة والخمول :

وكان ابن المبارك ، رغم اشتهاره في الناس ، وعلو مقامه بين الفقهاء والمحدّثين والأسخياء والمجاهدين ، وشهادة الجميع له بالإمامة ، والتقدم على الأقران ، مما فصّلنا بعضه قبل ذلك . . يودُّ لو اعتزل هذه الحياة ، وعاش خاملاً في الناس بحيث لا يعرف إذا حضر ، ولا يفتقد إذا غاب .

روى ابن الجوزي عن الحسن أنه قال : كانت دار ابن المبارك بمرو كبيرة ، صحن الدار نحو خمسين ذراعًا في خمسين ذراعًا ، فكنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم ، أو صاحب عبادة ، أو رجلاً له مروءة وقدر بمرو ، إلا رأيته في داره يجتمعون في كل يوم خلقًا يتذاكرون ، حتى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه . فلما صار ابن المبارك بالكوفة نزل في دار صغيرة ، وكان يخرج إلى الصلاة ثم يرجع إلى منزله ، لا يكاد يخرج منه ، ولا يأتيه كثير أحد ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن ! ألا تستوحش هاهنا مع الذي كنت فيه بمرو؟ فقال : إنما فررت من مرو من الذي تراك تحبه ، وأحببت ما هاهنا للذي أراك تكرهه لي ، فكنت بمرو لا يكون يوم إلا أتوني فيه ، ولا مسألة إلا قالوا : اسألوا ابن المبارك ، وأنا هاهنا في عافية من ذلك[1].

مجالسة الصحابة والتابعين أولى من الجلوس مع الناس :

ومن فهمه للأولويات : ما رواه شقيق البلخي ، قال : قيل لابن المبارك : إذا صلَّيت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال : أذهب مع الصحابة والتابعين! قلنا له : ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال : أذهب فأنظر في علمي (في كتبي) فأدرك آثارهم وأعمالهم ، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس[2].

---

(١) انظر : صفوة الصفوة (٤/١٣٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٤ ، ١٦٥) .

قال : وكنت مع ابن المبارك يوما فأتينا على سقاية والناس يشربون منها ، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس ، فزحموه ودفعوه ، فلما خرج قال لي : ما العيش إلا هكذا ، يعني حيث لم نعرف ولم نوقر[1].

وحكى المروزي راوي كتاب الزهد عنه ، أنه قال : كن محبًّا للخمول كراهية الشهرة ، ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول ، فترفع نفسك ، فإن دعواك الزهد من نفسك هو خروجك من الزهد ؛ لأنك تجر على نفسك الثناء والمدحة[2].

فانظر إليه كيف يغوص في أعماق النفس ويحللها ، ويحذِّر من آفاتها التي قد تخدع عنها .

٩- اعتزاله أصحاب البدع ورجال السلطان :

وكان يخالط المجتمع ، ويعمل لخيره بعلمه وماله وجهده ، ولكنه كان يبتعد عن صنفين من الناس :

الأول : أصحاب (البدع) ويعني بها : البدع الاعتقاديَّة والفكريَّة ، التي نشأت من التأثر بالملل والنحل المختلفة ، من وثنية وكتابية محرفة ، وهو يبتغي الإسلام صافيًا من كل شائبة .

ومن قوله: ليكن مجلسك مع المساكين، واحذر أن تجلس مع صاحب بدعة[3].

وقال الحارث من أصحابه : أكلت يومًا عند صاحب بدعة أكلة ، فبلغ ذلك ابن المبارك ، فقال : لا كلمتك ثلاثين يوما[4].

وذكر عنده يومًا جهم بن صفوان ، صاحب البدع الاعتقادية الثقيلة المعروفة ، فأنشد يقول :

عجبت لشيطان أتى الناس داعيـــا إلى النار ، وانشق اسمه من جهنم[5]!

---

(١) انظر : صفة الصفوة (٤/١٣٥) .

(٢) المصدر السابق (٤/١٣٧) .

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٩٤٨١) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٨) .

(٥) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤١١) .

وعن أحمد بن يونس ، قال : سمعتُ ابن المبارك قرأ شيئًا من القرآن ، ثم قال : من زعم أن هذا مخلوق ، فقد كفر بالله العظيم[1].

واحتج ابن المبارك على أهل الإرجاء ، الذين يقولون : إن الإيمان لا يتفاوت ، بما روى بسنده عن عمر قال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض ، لرجح[2] . قال الذهبي : مراد عمر رضي الله عنه أهل أرض زمانه[3].

قال عمر ذلك بمناسبة موقف أبي بكر يوم وفاة رسول الله ﷺ ، وارتداد العرب ومنعهم الزكاة ، وإصراره على أن يقاتلهم حتى يؤدوا حق الله .

والصنف الثاني : رجال السلطان ، فهو يتجنّبهم ، ويحذر من مخالطتهم ، ومعاونتهم على ما هم فيه من ظلم .

وقال الحمّادان : كان ابن المبارك يتّجر ، ويقول : لولا خمسة ما اتّجرت : السفيانان ، وفُضَيل ، وابن السماك ، وابن عُلَيَّة ، فيصلهم ، فقدم سنة ، فقيل له : قد ولي ابن عُلَيَّة القضاء فلم يأته ولم يصله ، فركب ابن عُلية إليه فلم يرفع به رأسًا ، فانصرف فلما كان من غد كتب إليه رقعة ، يقول : قد كنت منتظرًا لبرّك وجئتك فلم تكلمني ، فما رأيته مني ؟ فقال ابن المبارك : يأبى هذا الرجل إلا أن تقشعرَّ له العصا ، ثم كتب إليه :

يـا جاعـل الـدين لـه بازيـا ... يصْـطاد أمـوال المسـاكين

احتلـت للـدنيا ولذّاتـها ... حيلـة تـذهب بالـدين

فصرت مجنونـًا بـها بعـد مـا ... كنـت دواء للمجـانين

أيـن رواياتـك في سـردها ... لتـرك أبـواب السـلاطين؟

أيـن رواياتـك في سـردها ... عن ابـن عـون وابـن سـيرين ؟

إن قلت : أكرهـت فمـاذا باطـل ... زل حمـار العلـم في الطـين

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤١٠) .

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٣٦) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٨) .

فلما وقف على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء ، فوطئ بساط الرشيد ، وقال : الله الله ، ارحم شَيْبتي ، فإني لا أصبر على القضاء ، قال : لعلَّ هذا المجنون أغراك ، ثم أعفاه ، فوجَّه إليه ابن المبارك بالصرة[1].

وقيل : إن ابن المبارك إنما كتب إليه بهذه الأبيات لما ولي صدقات البصرة ، وهو الصحيح[2].

وقال الحسن بن الربيع : لما احتضر ابن المبارك في السفر قال : أشتهي سويقًا ، فلم نجده إلا عند رجل كان يعمل للسلطان ، وكان معنا في السفينة ، فذكرنا ذلك لعبد الله ، فقال : دعوه ، فمات ولم يشربه[3].

وقال أبو نُعَيم في الحلية : سئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن الغوغاء ؟ قال : خزيمة وأصحابه (يشير إلى أحد الأمراء الذين يعملون للظلمة) . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون بدينهم[4]!

وقال داود بن رشيد : كان ابن المبارك عند أبي الأحوص ، فجاء رسول فلان الهاشمي بعض الولاة ، فقال : فلان يقرئك السلام ، ويقول : يا أبا الأحوص! هذا شهر رمضان وقد وسَّعنا على عيالنا ، وهذه ألف درهم توسِّع بها عليهم في هذا الشهر ، قال أبو الأحوص : فعل الله به وفعل ، وقال : قل له يدعها عنده حتى إذا احتجنا إليها بعثنا فأخذناها .

قال : وانْسَلَّ ابن المبارك إلى منزله فجاء بألف ، فقال : يا أبا الأحوص ! هذه الألف تنفقها ، فإني لا آمن أن يكون قد بلغ أهلك فيخاصمونك ، وهذه من وجه أرجو أن تكون أطيب ، فقبلها[5].

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٦/٢٣٥ ، ٢٣٦) .

(٢) انظر : تهذيب التهذيب (١/٢٤٢ ، ٢٤٣) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٨/٤١١) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٧ ، ١٦٨) .

(٥) انظر : صفة الصفوة (٤/١٤٦) .

زجره عن أخذ الأموال من الأمراء :

قال الكُديمي ، حدثنا عبدة بن عبد الرحيم قال : كنت عند الفضيل بن عياض وعنده ابن المبارك ، فقال قائل : إنَّ أهلك وعيالك قد احتاجوا مجهودين محتاجين إلى هذا المال ، فاتَّق الله وخُذْ من هؤلاء القوم! فزجره ابن المبارك وأنشأ يقول :

خذ من الجاروش والأرز ... من حيز الشعير
واجعلن ذاك حلالا ... تَنْج من حر السعير
وانأ ما استطعت هداك ... الله عن دار الأمير
ازدريها واجتنبها ... إنها شر مزور
تُوهن الدنيا وتُدنيك ... من الحُوب الكبير
قبل أن تسقط يا مغرور ... في حفرة بير
وارْضَ يا ويحك من ... دنياك بالقوت اليسير
إنها دارُ بلاء ... وزوال وغرور
ما ترى قد صرعت ... قبلك أصحاب القصور[1]

امتناعه عن لقاء الرشيد :

وعن إبراهيم بن نوح الموصلي ، قال : لما قدم الرشيد عَيْن زُرْبة ، طلب ابن المبارك ، قال أبو سليمان : فذكرت ، وقلت : إنَّ ابن المبارك رجل خراساني ، لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره فيقتله ، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين ، وأهلكت ابن المبارك ، وأهلكت نفسي! فأمسك عنه ، ثم عاود فطلبه ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن ابن المبارك رجل جلف غليظ الطباع . . . فأمسك هارون ، وكان ابن المبارك علم بطلب الرشيد ، فاختفى ، ثم ظهر بعد ثلاث ، فقيل له : تخفَّيت ثم ظهرت ؟ قال : أردت نفسي على الموت ، فأبت عليّ ، فلما أجابتني ظهرت[2] . وإنما أراد نفسه على الموت ؛ لأنه خشي أن يطلب منه الرشيد شيئًا ولا يقبله ، مثل تولِّي القضاء ونحوه .

* * *

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٥/٤١٥) .

(٢) انظر : تذكرة الحفاظ (١/٢٠٣ ، ٢٠٤) .

الخاتمة

بعد هذه الجولة في رياض القرآن والسنة وهدي الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان ، بين هاتين المنزلتين من منازل السالكين إلى الله : (الورع والزهد) ، تعرَّفنا على أهداف الناس في الحياة الدنيا ، وبيَّنا الفرق بين الورع والزهد ، وأنهما يدخلان في باب الترك والاجْتناب ، وحرصنا على تخليص مفهوم الورع والزهد مما لحقه من الشوائب والمحدثات .

١- ففي الفصل الأول من الباب الأول : عرَّفنا الورع لغةً واصطلاحًا ، ونقلنا أقوالاً رائعة للسلف في تعريفه .

٢- وفي الفصل الثاني : تكلَّمنا عن درجات الورع ومراتبه ، وبيَّنا أن أدنى مراتب الورع : الورع عن ارتكاب الكبائر ، وعرَّفت الكبيرة ، وحذَّرت من كثير من كبائر الآثام التي يغفل عنها كثير من الناس ، وبيَّنت أن كبائر ترك المأمورات أشدُّ خطرًا من كبائر فعل المحظورات .

٣- ثم تكلمت عن المرتبة الثانية من مراتب الورع : وهي اجتناب صغائر المحرَّمات المقطوع بتحريمها ، ونبَّهت على كثير من المحرَّمات المنتشرة في حياة الناس ، وحذَّرت من خطورة الإصرار على الصغائر والإكثار منها .

وهاتان المرتبتان : الورع عن الكبائر والصغائر هما (ورع العدول) كما يسميه الغزالي .

٤- وأما المرتبة الثالثة ، فهي ترك الشبهات ، وهي (ورع الصالحين) كما يسميها الغزالي أيضًا . ومما يدخل في هذه المرتبة : التورع عن المكروه تحريمًا .

٥- وأما المرتبة الرابعة ، فهي الورع عن بعض الحلال ، وهي التي سمَّاها الغزالي : (مرتبة المتقين) ، ويدخل في هذه المرتبة : التورع عن المكروهات التنزيهية ، وخلاف الأوْلى . وأوردت نماذج للسلف في التحقق بهذه المرتبة الرفيعة .

٦- وأما المرتبة الخامسة ، فهي الإعراض عن كل ما يشغل عن الله والدار الآخرة ، وهي (مرتبة الصِّدِّيقين) .

٧- وفي الباب الثاني من أبواب الكتاب ، وهو : الزهد ، مهدت له بتمهيد مهم ، بيَّنت فيه عدم ورود كلمة الزهد في القرآن والسنة الصحيحة ، رُغم شيوع هذا المصطلح وكثرة الكتب المؤلفة فيه ، وإطلاق هذا الوصف على جماعة من السلف . وأكّدت على جواز استخدام هذا المصطلح بمعناه المعروف عند علماء السلوك ، لأنَّ مضمون هذا المصطلح وإنْ لمَ يردَ بهذا اللفظ في القرآن وصحيح السنة ، فإنَّ القرآن والسنة حافلان بالتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة .

وعقدت بعد هذا التمهيد أحد عشر فصلاً :

٨- أما الفصل الأول ، ففي تحذير القرآن من الدنيا ، وتحذير السنة النبوية ، وأوردتُ أكثر من خمسين حديثًا صحيحًا ممَّا انتقيته من كتابي : (المنتقى من الترغيب والترهيب) للمنذري .

٩- وفي الفصل الثاني : حرَّرت المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة ، وأن ذلك لا يرجع إلى زمان الدنيا ومكانها وما فيها ، وإنما الذمُّ راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة فيها .

وركَّزت على أن الدنيا وإن اعتبرت متاعًا قليلاً وزائلاً ، فإنها دار لها أهميتها العظمى باعتبارها مزرعة الآخرة ، ونقلت من أقوال أهل البصيرة ما يُذمُّ من الدنيا وما يُمدح فيها .

١٠- وفي الفصل الثالث : أوضحت ما ينكر الإسلام من الدنيا ، من شدّة حبها والحرص عليها ، وتقديمها على الدين عند تعارضه مع الدنيا ، وتقويم الناس على أساس الدنيا ، واتِّخاذ أعمال الآخرة وسيلةً لكسب الدنيا .

١١- وفي الفصل الرابع : عرَّفت اصطلاح الزهد عند علماء السلوك ، واختلافهم في تعريفه وتحديد مفهومه ، ونقلت عددًا من التعريفات عن السلف التي يُعبِّر

كلٌّ منهم عن عنصر من عناصر الزهد ، والتي تتكوَّن من مجموعها الحقيقة الإيمانية المنشودة .

١٢- وأوضحتُ أمرًا يلتبس على الكثيرين ، وهو : أن الزهد في لقاء الناس التي نقلت عن بعض السلف ، لا يعني العزلة عنهم . فالإسلام دين اجتماعيٌّ ، يربِّي المسلم على أن يحيا في جماعة ، ويعمل في جماعة ، وأن العمل لنصرة الإسلام لا يتحقق إلا إذا كان عملاً جماعيًّا . والمقصود بالزهد في الناس : الزهد في الشهرة والثناء والمدح .

١٣- وتعقبت ما نقل عن عامر بن عبد قيس في زهده في المال والنساء واستغنائه عنهما ، وهما موجب الفطرة البشريَّة ، وناقشت قول أبي سليمان الداراني في اعتباره التزوُّج والسفر وكتابة الحديث ركونًا إلى الدنيا .

١٤- وأجبت في آخر هذا الفصل عن سؤال طرحه أهل السلوك ، وهو : هل الزهد ممكن هذه الأزمنة في القرن الرابع والخامس وما بعدها؟ ونقلت تحقيق ابن القيم في وجود الحلال في الدنيا .

١٥- ورددت عمَّن فضَّل تَرَك الدنيا وَرَفَضَها عمَّن أدركها وَوَصَل بها رَحِمَهُ ، وبيَّنت أنَّ المدار يقوم على شكر النعمة أو كفرانها ، وأوردت أحاديث لها دلالة في هذا الموضوع .

١٦- وفي الفصل الخامس : بيَّنت حقيقة الزهد في الدنيا ومكوّناته . وأنه في أمرين أساسيين اثنين : الأول : إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا ، والثاني : الإعراض عن اتباع الشهوات .

وعند كلامي عن الأساس الأول من مكوِّنات الزهد ، بيَّنت الآثار الخطيرة لحُبِّ الدنيا وإيثارها على الآخرة ، ومن ذلك : اضطراب المعايير ، وانقلاب الموازين في تقويم الناس ، وضعف الأمة وإدخال الوهن عليها .

١٧- والأمر الثاني من مُكوِّنات الزهد المشروع: الإعراض عن اتباع شهوات الدنيا . فلا تكون شهواتها أكبر همِّه ، ومبلغ علمه ، وتستعبده شهوة البطن أو الفرج

أو الشهرة ، وحذَّرت من شهوات الدنيا الحسيَّة والمعنويَّة ، وهي المهلكات للفرد والأمة .

١٨- وفي الفصل السادس : تكلَّمت عن موقف الناس من الزهد في الحياة الدنيا ، وقدَّمت لهذا الفصل بأنَّ الدنيا ليست مذمومة لذاتها ، لأنَّ الله تعالى خلقها لعباده وسخَّرها لمنفعتهم ، وطلب منهم أن يعمروها .

ونقلت عن الإمام الغزالي مواقف الناس من الدنيا ، ثم بيَّنت موقف الناس من الدنيا ، وأنهما قسمان : أحدهما : منكر الآخرة ، والقسم الثاني : المؤمنون بالآخرة ، وأنهم متفاوتون في فهم حقيقة الدنيا والتعامل معها .

فمنهم الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات بإذن الله . والسابقون صنفان : منهم من يقتصد من الدنيا على قدر ما يسدُّ الرمق ، ومنهم من يفسح لنفسه أحيانًا في تناول شهواتها المباحة .

ثم نقلت عن الحافظ ابن رجب المشاهد التي يشهدها الزاهدون في الدنيا ، وأنَّ خواصَّهم يخشى أن تشغله الدنيا عن الله .

١٩- وفي الفصل السابع : حذَّرت من العقبات التي تمنع الإنسان من الزهد في الدنيا ، والتي تحول بينه وبين الإقبال على الآخرة .

وتحدَّثت عن أربع عقبات أساسية ، وهي : الغفلة عن الله ، وعن الموت وما بعد الموت ، وعن مصاير الغابرين . والعقبة الثانية : طول الأمل . والعقبة الثالثة : سيادة القيم الماديَّة . والعقبة الرابعة : افتقاد القدوة .

وأظهرتُ جوانب من زهد الرسول ﷺ وأصحابة والتابعين لهم ، وتكلَّمت عن أثر صحبة المُربِّين الربَّانيين من الزاهدين .

٢٠- وفي الفصل الثامن : أوضحت البواعث التي تُحفِّز على الزهد . واقتصرت على أربعة بواعث أساسية ، وهي :

أ- ذكر الموت ، وبيَّنت طريق الانتفاع بذكره .

ب ـ والباعث الثاني : الاعتبار بمصاير أهل الدنيا وعُشَّاقها ، واخترت قصة قارون ومصيره الذي صار إليه ، وأشرتُ إلى نماذج من مصاير الذين غرَّتهم الدنيا .

جـ ـ والباعث الثالث : استحضار الآخرة ومواقفها وأحوالها .

د ـ والباعث الرابع : معرفة قيمة الدنيا التي يتهافت عليها الناس ، وذكرت أهم أوصافها ، فهي متاعٌ قليل ، ومتاعٌ زائل ، وهي سريعة التقلُّب ، ودار عناء وتعب : أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، وأنَّ لذاتها ممزوجة بالآلام ، وخيراتها مخلوطة بالشرور .

٢١- وقارنت بين قيمة الدنيا إلى الآخرة ، وأبَنْتُ أنَّ متاعها قليل بالنسبة للزمان ، وقليل بالنسبة للمكان .

٢٢- وفي الفصل التاسع : كشفت عن أمور يعدُّها بعض الناس من أساسيات الزهد ، ولكنها ليست من حقيقة الزهد ولا من ضروراته . مثل : الإعراض عن الزواج ، والعزلة عن المجتمع والبُعد عن أنشطته الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، والإعراض عن العمل للكسب وامتلاك المال ، وأن يعيش المسلم فقيرًا ، وأن يُعرض عن الحياة الطيبة .

٢٣- وفي هذا الفصل صَحَّحت الكثير من المفاهيم المغلوطة ، ومن ذلك : موقف الإسلام من المرأة ، بعدِّها نعمةً من نِعَم الدنيا ، وطيِّبة من طيِّبات هذه الحياة ، وأنَّ المحذور من جهة المرأة أمران : الاستمتاع الحرام ، والانشغال بالمرأة عن واجب الدين والأمة .

٢٤- ومن ذلك أيضًا : العمل لكسب العيش ، وأنَّ العمل المشروع المباح ضَرْبٌ من العبادة والجهاد إذا توفَّرت فيه النيَّة الصحيحه ، وإحسان العمل وإتقانه ، والتزام حدود الله ورعاية حقوق الناس ، وألاَّ يلهيه عمل دنياه عن عمل دينه ، ولا حظُّ نفسه عن حقِّ ربه .

٢٥- ومن ذلك أيضًا : الغنى وامتلاك الدنيا ، وأنه لا يناقض الصلاح والتقوى ، ونقلتُ كلام ابن الجوزي في ردِّه على الذين ذمُّوا الغنى ، واعتبروا المال شرًّا .

٢٦- وناقشت الإمام الغزاليّ الذي استدلَّ لفضل الفقر في كتاب (الزهد) بآيتين ، هما قوله تعالى في سورة الحشر : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحشر:٨)، وقوله في سورة البقرة : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ (البقرة:٢٧٣).

وبيَّنت بُعْده عن الفهم الدقيق للآيتين الكريمتين ، وأنَّ الآية الأولى ليست إلا بيانًا لموضع الفيء من الناس ، وبيان الصفة التي استحقوا بها هذا ، وهي الفقر ، مع بيان العلة التي أدَّت إلى هذا الفقر ، وهي هجرتهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير حق .

والآية الثانية ، بيان لأحقِّ الناس بالصدقة والإنفاق الذي يُحبُّه الله ، وهم الفقراء الذين تحققوا بخمس صفات : أولها : الفقر ، وثانيها : الإحصار في سبيل . . . ودلَّ على هذا المعنى ختام الآية بقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٧٣).

٢٧- وإنما يكون المال شرًّا إذا أصبح حُبُّ جمعه وتنميته هو الشغل الشاغل لصاحبه ، ولا يبالي من أين جاء : أمن خبيث أم طيب؟

ويكون شرًّا إذا أدى بمالكه إلى الغرور به والطغيان والبغي على غيره ، وإذا أنسى صاحبه الآخرة ، أو إذا أنفقه في غير محلِّه ، وبخل به عن حقِّه ومَوْضعه ، وإذا شغل صاحبه عن واجب دينه ، وإذا أصبح مقياس عظمة الناس وتقديرهم في الدنيا .

٢٨- وكلُّ الذي يُطلب من الغني من واجبات تُحدِّد علاقته بالله وبالآخرة وبالناس والحياة ما جاء على لسان المؤمنين من قوم موسى في الوصايا الخمس التي نصحوا بها قارون ، والتي جاءت في الآيات : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ

نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٦،٧٧)

٢٩- وصحَّحت في هذا الفصل أيضًا توهُّم المعرضين عن الاستمتاع بالطِّيبات ظنًّا منهم أنَّ ذلك من الزهد الذي يدعو إليه الإسلام ، وأوردت الآيات التي تنكر على الذين حَرَّموا على أنفسهم الطيِّبات ، وبيَّنت قيود الاستمتاع بما رزق الله من الطيِّبات ، وكشفت عن موقف خصوم الإسلام من الحديث عن الحياة الطيبة ، وعن تخوُّف بعض المسلمين من الدعوة إلى الحياة الإسلامية الحقَّة . جاهلين أنَّ الإسلام دينُ الحياة ، وذكرت أن التمتُّع بالطيِّبات من مقتضى الفطرة ، وموجب الطبيعة الإنسانيَّة .

٣٠- وأما الفصل العاشر ، فقد ذكرتُ فيه حدود الزهد المطلوب ـ في نظر الإمام الغزالي ـ في ضروريات الحياة الدنيا ، من أرباب السلوك وتعرَّض فيه لضروريات الحياة الستَّة المهمة من : مطعم ، وملبس ، ومسكن ، ومنكح ، ومال ، وجاه .

وقد ضيَّق الإمام الغزالي في هذه الضروريات بحيث لا يتَّسع الزهد فيها إلا لأناس متفرِّغين للتعبُّد ، أو لأناس أُوتوا من العزائم والقوة ما لم يؤت لغيرهم .

٣١- ووقفت في الفصل الأخير من هذا الباب وقفات نقديَّة مع الإمام أبي حامد الغزالي ، أكَّدت فيه ما ذكرته من قبل أنَّ مصطلح الزهد والزهَّاد ليس مصطلحًا قرآنيًا ولا نبويًا ، وإن أصبح مصطلحًا إسلاميًا معروفًا عند علماء السلوك ، ثم استعرضت المفاهيم والمصطلحات القرآنية التي تكرَّرت في القرآن ، ومن ذلك أوصاف المؤمنين ، والمتَّقين ، والأبرار ، والمحسنين ، وعباد الرحمن ، وأُولي الألباب ، وأوضحت بعد ذلك أنه ليس كل ما يُروى عن الزُّهَّاد معقولاً . وأنَّ الأمة تحتاج أن تأخذ نفسها بالتقشُّف من أجل الجهاد والقيام بالأعمال الإنسانية الكبرى ، وأنَّ الإسلام يحارب الترف والنعومة والإفراط في الشِّبع .

٣٢- وأكَّدت في هذا الفصل على أنَّ الصور التفصيليَّة لحياة الزهد والزهَّاد في الأزمنة الماضية لم تعد تصلح للتطبيق في عصرنا ، وذكرت مواصفات الطعام الصِّحِّي اللازم للإنسان ، وارتقاء نوع اللباس والبيوت السكنية في عصرنا ، وضرورة العناية بالأسرة والأولاد في مسكنهم وتعليمهم .

٣٣- وانتقدت منهج الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ من وجهين :

من جهة غُلوِّ الصوفية وشطحاتهم وتجاوزاتهم من غير استناد إلى أصل شرعيّ .

ومن جهة اعتماده في كثير من استدلالاته على الأحاديث الضعيفة جدًّا ، والمنكرة والواهية ، بل الموضوعة المكذوبة . ولم يلتفت إلى السُّنَّة الثابتة التي تخالف ما دعا إليه من المبالغة في التقشُّف والتبذُّل والحرمان .

٣٤- على إننا نجد أبا حامد كثيرًا ما يرجع إلى المنهج الوسط ، ومن ذلك وسطيَّته في رياضة الطبائع والأخلاق ، وما بيَّنه في تصنيفه الناس بالنسبة إلى الصِّراط المستقيم .

٣٥- وفي ختام هذا الفصل النقدي الهام أكَّدت ، أن الإسلام لا يعادي الحياة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى الحياة ، وأنَّ الكون مُسخَّر لخدمة الإنسان . وأوضحت نظرة الإسلام إلى المال والغنى وطيب الحياة ، ودعوته إلى عمارة الأرض حتى آخر لحظة في الحياة ، وفضيلة الطموح الموجَّه إلى الخير ، وهو ما أقام حضارة الإسلام التي تجمع بين العلم والإيمان ، وبين السُّموِّ الروحيِّ والأخلاقيِّ والإبداع الماديِّ والعمرانيِّ .

وهو ما اعترف به مؤرِّخو الغرب ، عندما قارنوا بين مدنية أوربا في ذلك العهد ومدنية العرب .

٣٦-وأما الباب الثالث والأخير من هذا الكتاب (الورع والزهد) في الطريق إلى الله، وتيسير فقه السلوك ، فقد أوردت نماذج من زهد الخلفاء والعلماء وورعهم .

واقتصرت على ثلاثة من الخلفاء ، وهم :

عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب من الصحابة ، وعمر بن عبد العزيز ممَّن بعدهم .

٣٧- واخترت بعد الخلفاء نموذجين إسلاميين من الزُّهَّاد الأوائل ، وهذان النموذجان هما :

إبراهيم بن أدهم ، وعبد الله بن المبارك . وخصَّصْتُ كلاًّ منهما بحديث يليق به ، ويُجلِّي زهده وورعه .

أسأل الله سبحانه أن يتقبَّل مني هذا العمل ، وأن ينفع به ، وأن يجعله سبيلاً مقرِّبًا إلى الله سبحانه ، ومُصَحِّحًا للأفكار والمفاهيم ، ومُقوِّمًا للأخلاق والسلوك ، وأن يجعلنا من عباده الورعين الزاهدين ، الذين يتحقَّقون بمراتب الورع ويرتقون في مدارج الزهد ، حتى لا تشغلهم الدنيا عن الله عزَّ وجل ، وأن يعلِّق قلوبنا بالآخرة ، وأن يجعلنا ممَّن يزهدون بما في أيدي الناس ، ويجعل غنانا في أنفسنا ، ويملأ صدورنا غنى ، ويرزقنا لسانًا ذاكرًا ، وقلبًا شاكرًا ، وبدنًا على البلاء صابرًا .

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة	٣
تمهيد	
أهداف الناس في الحياة الدنيا	
(٩-١٦)	
للناس في هذه الدنيا أهداف شتَّى ، فهم بالنظر إليها أنواع	٩
الفرق بين الورع والزهد	١٠
أهمية الورع والزهد	١١
لماذا خلقنا الله عزَّ وجل ؟	١٢
كيف نُحقِّق العبوديَّة لله سبحانه؟	١٢
حقيقة الدين	١٣
ابتلاء الله عباده بالتكليف	١٣
التكليف فعلٌ وتَرْكٌ	١٣
الورع والزهد يدخلان في جانب الترك	١٤
تخليص مفهوم الورع والزهد من الشوائب والمحدثات	١٤
الميزان الذي لا يميل والمعيار الذي لا يضل	١٥
التخلية قبل التحلية	١٥
الباب الأول : الورع	
(١٧-٥٠)	
الفصل الأول	
تعريف الورع وحقيقته	
(١٩-٢٠)	
تعريف الورع لغةً واصطلاحًا	١٩
من أقوال السلف في تعريف الورع	١٩
الفصل الثاني	
درجات الورع ومراتبه	
(٢١-٥٠)	
تقسيم الراغب الأصفهاني للورع	٢١
الورع عن اقتراف الكبائر	٢١
تعريف الكبيرة	٢٢
الكبائر التي يَغْفُلُ عنها كثيرٌ من الناس	٢٣
اجْتناب كبائر الإثم	٢٤

تفسير اللَّمَم ٢٥
ترك الكبائر مُكفِّر للصغائر ٢٥
كبائر ترك المأمورات أشدُّ من كبائر فعل المحظورات ٢٥
كبيرة ترك الصلاة ٢٥
كبيرة ترك الزكاة ٢٦
كبائر الإثم والفواحش الرائجة في عصرنا ٢٧
الورع عن ارتكاب الصغائر ٢٨
لغو الحديث والخوض في الباطل ٢٩
فاكهة المجالس : الغيبة والاستماع إليها ٢٩
الاستماع إلى الأغاني الخليعة ٣٠
هل في الصغائر خطر ؟ ٣٠
خطورة الإصرار على الصغائر والإكثار منها ٣٠
الصغائر تجرُّ إلى الكبائر ٣١
خطر الاستهانة بصغائر الذنوب ٣١
إحساس أصحاب القلوب الحيَّة بخطر الذنوب ٣٢
الأسباب التي تجعل الصغيرة كبيرة ٣٢
خطر الغفلة عن المعصية ونسيان الاستغفار ٣٣
ورع العدول ٣٤
الورع عن الشُّبهات (ورع الصَّالحين) ٣٤
من أين تأتي الشبهة ؟ ٣٥
التورُّع عن المكروه التحريمي ٣٦
من أقوال السَّلف في اجْتناب الشبهات ٣٦
الورع عن بعض الحلال (مرتبة المتقين) ٣٦
الورع عن المكروهات التنزيهيَّة ٣٧
الورع عن بعض الحلال والتوسُّع في المباحات ٣٧
نماذج من ورع المتقدمين ٣٩
ورع أخت بشر الحافي ٣٩
ورع السيدة بديعة الإيجيَّة ووالدها ٣٩
ورع والد الحافظ ابن عقدة ٣٩
ورع الإمام أبي إسحاق الشيرازي ٤٠
ترك كل ما يشغل عن الله والآخرة (مرتبة المتقين) ٤٠
أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها ٤١
ورع العدول ٤١

ورع الصَّالحين..... ٤١
ورع المتَّقين..... ٤٢
الاحتراز عمَّا يتسامح به الناس..... ٤٢
التورُّع عن الزينة خشيةَ أن تدعوَ إلى غيرها..... ٤٤
الأخذ من المباحات قدر الحاجة..... ٤٥
وَرَعُ الصِّدِّيقين..... ٤٥
دقائق الورع عند الصِّدِّيقين..... ٤٦
أول الورع وغايته..... ٤٧
معالجة الورع صعوبةً ويسراً..... ٤٧
كمال الورع في تحقيق ابن تيميَّة..... ٤٨
القدوات يعلِّمون الورع..... ٤٨

الباب الثاني : الزهد
(٥١-٢٦٥)

تمهيد..... ٥٣
كلمة الزهد في القرآن والسنة..... ٥٣
شيوع مصطلح الزهد والكتب المؤلفة فيه..... ٥٥
إطلاق وصف الزهَّاد على جماعة من السلف..... ٥٦
هل يجوز استخدام مصطلح (الزهد) ؟..... ٥٦
التحذير من التجاوزات والتطرُّفات..... ٥٦
حكم الزهد..... ٥٧
مُكوِّنات حقيقة الزهد..... ٥٧
ارتباط العنصر الوجداني بالعنصر العقلي المعرفي..... ٥٨
أثر العنصر الوجداني الشعوري في العنصر العملي السلوكي..... ٥٨

الفصل الأول
التحذير من فتنة الدنيا
(٥٩-٧٨)

أولاً : تحذير القرآن من الدنيا..... ٥٩
إيثار الدنيا على الآخرة من أسباب الانحراف عن الحق..... ٦١
الدنيا ثمن قليل..... ٦٢
موعظة مؤمن آل فرعون..... ٦٢
التحذير من الانخداع بغرور الدنيا والشيطان..... ٦٢
عَرَض الدنيا..... ٦٣
ثانيا : التحذير من الدنيا في السنة النبوية..... ٦٣

الفصل الثاني
المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة
(٧٩-٨٤)

ليس المذموم زمان الدنيا ٧٩
تعاقب الليل والنهار من نعم الله تعالى على الإنسان ٧٩
ليس المذموم مكان الدنيا ولا ما فيها ٨٠
ليس من الدنيا المذمومة ٨١
تمييز أهل البصيرة بين ما يذمُّ من الدنيا وما يُمدح فيها ٨١
من كلام علي ﷺ في وصف الدنيا ٨٣

الفصل الثالث
ما ينكره الإسلام من الدنيا
(٨٥-٨٨)

حبُّ الدنيا والحرص عليها ٨٥
تقديم الدين على الدنيا عند تعارضهما ٨٥
حقيقة الضعف في الأمة ومنابعه ٨٦
تقويم الناس على أساس الدنيا ٨٦
قلب الموازين واختلال القيم ٨٧
بين عبادة الدنيا وعبادة الله ٨٧
اتِّخاذ أعمال الآخرة وسيلة لكسب الدنيا ٨٨

الفصل الرابع
تعريف الزهد عند علماء السلوك
(٨٩-١١٤)

عناية علماء السلوك بالزهد ٨٩
الاختلاف في تعريف الزهد وتحديد مفهومه ٨٩
الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء من أعمال القلوب ٩٠
شرح الحافظ ابن رجب لمعنى الأثر ٩٠
الثقة بما عند الله ٩٠
الرغبة في ثواب الله ٩٢
استواء الحمد والذمِّ في الحق ٩٢
لا فرح بالموجود ولا أسى على المفقود ٩٣
قِصَرُ الأمل في الحياة ٩٣
التواضع للخَلق ٩٤
الصبر على الحرام والشكر على الحلال ٩٤
الشكر في الرَّخاء والصبر في البلاء ٩٤
زهد الفرض والفضل والسلامة ٩٥

الزهد في الناس وفي النفس ٩٥
الإسلام دينٌ اجتماعي ٩٦
العمل لنصْرة الإسلام ٩٦
المقصود بالزهد في الناس ٩٧
الورع أول الزهد ٩٨
أهمية الحرص على الحلال الطيِّب ٩٨
الزهد إنما هو في الحلال ٩٨
ترك فضول الدنيا ٩٩
تقلّل زُهَّاد الصحابة من الدنيا ٩٩
الإعراض عن حُبِّ الدرهم والدينار ١٠٠
تَحَرِّي رضا الله في كلِّ ما يعمل ١٠٢
ترك ما لا يعني ١٠٢
الزهد استصغار الدنيا ١٠٣
جعل الهموم المتشعِّبة همًّا واحدًا ١٠٣
مناقشة قول عامر بن عبد قيس بعدم الحاجة إلى المال والنساء ١٠٥
ترك كل ما يشغل عن الله ١٠٥
مناقشة قول الداراني في اعتباره التَّزوُّج والسفر وكتابة الحديث ركوناً إلى الدنيا... ١٠٦
الزهد عند ابن الأعرابي ١٠٧
أعلى مراتب الزهد ١٠٨
الزهد عند الإمام أحمد ١٠٩
الزهد سفر القلب من الدنيا إلى الآخرة ١٠٩
هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة ؟ ١١٠
تحقيق ابن القيم في وجود الحلال في الدنيا ١١١
ترجيح الحسن البصري لمن رفض الدنيا عمن أدركها بجلالها ١١١
ذمُّ قارون لعدم قيامه بحقِّ الله في المال ١١٢
ثناء الله تعالى على يوسف وداود وسليمان ١١٢
قوم سبأ بين الشكر الكفر ١١٣
أحاديث لها دلالة ١١٣

الفصل الخامس
حقيقة الزهد في الدنيا ومُكوِّناته
(١١٥-١٢٦)

حقيقة الزهد في أمرين أساسيين ١١٥
الأول : إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا ١١٥

إيثار الدنيا ١١٧
استحباب الحياة الدنيا ١١٨
الآثار الخطيرة لحُبِّ الدنيا وإيثارها على الآخرة ١١٩
اضْطراب المعايير ١١٩
حُبُّ الدنيا وأثره في ضعف الأمة وإدخال الوهن عليها ١٢١
الثاني : الإعراض عن اتِّباع الشهوات ١٢٣
تزيين الشهوات للناس ١٢٤
التحذير من شهوات الدنيا الحسيَّة والمعنويَّة ١٢٤
التحذير من شهوتي البطن والفرج ١٢٤
تحريم مقدِّمات الزِّنى ١٢٥
تحريم الخمر والمسكرات ١٢٥
خطر الشهوات المعنوية ١٢٦

الفصل السادس
موقف الناس من الحياة الدنيا
(١٢٧-١٤٠)

عمارة الأرض ١٢٧
ما الذي يُذمُّ في الدنيا ؟ ١٢٧
طوائف أهل الدنيا الغافلون عن الآخرة ١٢٨
الحريصون على كسب القوت والأكل ١٢٨
الحريصون على شَهْوتي البطن والفرج ١٢٨
الحريصون على الاستكثار من المال ١٢٩
الحريصون على الثناء والمدح ١٢٩
الحريصون على الجاه والمكانة ١٢٩
المقصود من المطعم والملبس والمسكن ١٣٠
طوائف المعرضين عن الدنيا ١٣٠
القاتلون أنفسهم ١٣٠
المُشَدِّدون على أنفسهم ١٣٠
تاركو العبادة ١٣١
موقف الفرقة الناجية في التعامل مع الدنيا والشهوات ١٣١
منهج الصحابة الوسط ١٣٢
تفاوت المؤمنين في فهم حقيقة الدنيا ١٣٣
الظالم لنفسه ١٣٣
المقتصد ١٣٣

السابق بالخيرات ١٣٥
السابقون صنفان ١٣٦
تنوُّع مشاهد الزاهدين في الدنيا ١٣٧
خشية الزهَّاد من الاشتغال بالدنيا عن الله ١٣٨
المقصود من الدنيا الملعونة ١٤٠

الفصل السابع
عقبات في طريق الزهد
(١٤١-١٥٣)

أولاً : الغفلة ١٤١
الغفلة عن الموت ١٤٢
الغفلة عما بعد الموت ١٤٢
الغفلة عن مصاير الغابرين ١٤٢
الغفلة حجاب كثيف ١٤٣
أهمية يقظة القلب وبصيرته ١٤٣
ثانيًا : طول الأمل ١٤٤
من علامات الشقاوة ١٤٤
العناية بالتخطيط واستشراف المستقبل ١٤٥
تخطيط الرسول ﷺ لتأسيس الدولة ١٤٥
أهمية الأمل والتخطيط للمستقبل ١٤٥
سياسة الأمم تقوم على طول الأمل ١٤٦
تربية الأفراد تربية إيمانية متوازنة ١٤٧
ثالثًا : سيادة القيم المادية ١٤٧
تحذير النبيِّ ﷺ من فتنة الدنيا ١٤٨
المراد باتِّقاء الدنيا ١٤٩
التحذير من فتنة المال ١٤٩
المراد بفتنة المال ١٤٩
الثروة التي لا تنفد والكنوز التي لا تفنى ١٤٩
رابعًا : افتقاد القدوة ١٥٠
المَثل الأعلى في الزهد ١٥١
أصحاب النبيِّ ﷺ نماذج مشرفة في الزهد ١٥١
تلاميذ الصحابة من التابعين ١٥٢
أثر صحبة الزاهدين ١٥٣
استمرار الخير في هذه الأمة ١٥٣

الفصل الثامن
بواعث الزهد
(١٥٥-١٧٥)

أولاً : ذكر الموت ١٥٥
كيف ننتفع بذكر الموت ؟ ١٥٦
ثانيًا : الاعتبار بمصاير أهل الدنيا ١٥٧
قصة قارون ١٥٨
وقفات ونظرات في قصة قارون ١٥٩
نماذج من مصاير الذين غرَّتهم الدنيا ١٦٠
ثالثًا : استحضار الآخرة ١٦١
وَضْعُ الكتب ١٦٢
الميزان ١٦٢
محكمة العدل الإلهيَّة ١٦٢
شهادة الجوارح ١٦٣
عدل الله وحكمته ١٦٣
تكامل حلقات الوجود الإنساني ١٦٤
مراحل الوجود الإنساني ١٦٤
أثر استحضار الآخرة ١٦٤
رابعًا : معرفة قيمة الدنيا ١٦٥
صفات الدنيا الأساسية ١٦٥
الدنيا متاع قليل ١٦٦
الدنيا متاع زائل ١٦٧
قِصَرُ عمر الإنسان في الدنيا ١٦٨
الدنيا سريعة التَّقلُّب ١٦٩
حذر الزاهدين من غرور الدنيا ١٧٠
الدنيا دار عناء ومتاعب ١٧١
أولها بكاء ١٧١
أوسطها عناء ١٧١
لذَّات الدنيا ممزوجة بالآلام ١٧٢
نسبة الدنيا إلى الآخرة ١٧٣
متاع الدنيا قليل بالنسبة للزمان ١٧٤
متاع الدنيا قليل بالنسبة للمكان والمساحة ١٧٤

الفصل التاسع
ليس من مُتَطلَّبات الزهد
(١٧٧-٢٢٢)

أولاً : ليس من الزهد الإعراض عن الزواج ١٧٧
خطر الانشغال بالزوجة والأولاد عن حقِّ الله تعالى ١٨٠
تخيير النبيِّ ﷺ نساءَه ١٨٠
هديه ﷺ في بيته ومع نسائه ١٨١
موقف المسلم الزاهد من المرأة ١٨٢
فتنة شعوب ومذاهب بجسد المرأة ١٨٣
موقف رهبان المسيحيَّة من المرأة ١٨٣
وسطيَّة الإسلام في موقفه من المرأة ١٨٣
الترغيب في الزواج ١٨٤
المرأة من نِعَم الله الكبرى ١٨٤
العناية بجانب الجمال في المرأة ١٨٤
المحذور من جهة المرأة ١٨٥
الاستمتاع الحرام بالمرأة ١٨٥
الحكمة من تحريم الزنى ١٨٥
إغلاق أبواب الفتنة الجنسية ١٨٦
تيسير سبل الزواج والاستمتاع الحلال ١٨٦
الانشغال بالمرأة عن واجب الدين والأمة ١٨٧
الاستمتاع بالزوجة عبادة ١٨٧
ثانيا : ليس من الزهد العزلة عن المجتمع ١٨٩
مشاركة عبد الله بن المبارك في أنشطة الحياة المتنوِّعة ١٨٩
ثالثا : العمل لكسب الدنيا ليس مذمومًا ولا ينافي الزهد ١٩٠
الأمر بالمشي في مناكب الأرض والتماس الرزق فيها ١٩٠
سبب تخفيف صلاة الليل عن المسلمين ١٩١
ابتغاء فضل الله في الحج ١٩١
تعليم داود صناعة الحديد ١٩١
صحاح الأحاديث تُنوِّه بالحِرَف والأعمال الدنيويَّة ١٩١
الشروط التي تجعل العمل الاقتصادي عبادة لله وجهادًا في سبيله ١٩٢
النيَّة الصحيحة ١٩٢
إحسان العمل وإتقانه ١٩٢
مشروعية العمل وإباحته ١٩٣
التزام حدود الله ورعاية حقوق الناس ١٩٣

الموازنة بين العمل للدين والدنيا ١٩٣
رابعًا : ليس من ضرورة الزهد أن يعيش المسلم فقيرًا ١٩٤
امتنان الله على رسوله والمؤمنين بالغنى ١٩٤
سَعَة الرزق من ثمرات التقوى ١٩٤
من أدعيته ﷺ في شأن المال والغنى ١٩٥
ليس الغنى مناقضًا للصلاح والتقوى ١٩٦
المفاضلة بين الغنيِّ الشاكر والفقير الصابر ١٩٧
ردُّ ابن الجوزي على الذين ذمُّوا الغنى ١٩٧
الغنى أداة خير للأخيار ١٩٨
أثر المقصد في جمع المال ١٩٩
مقاصد الصحابة في جَمْع المال والازدياد منه ١٩٩
سبب مجافاة بعض السلف للاستكثار من المال ٢٠٠
الصبر على الفقر والشكر على الغنى ٢٠٠
الردُّ على من كره أن يخلف الفقير شيئًا ٢٠١
الردُّ على مَنْ زعم أن ليس للإنسان ادِّخار شيء لغده ٢٠١
الرد على من خرج من ماله وتعرَّض للأوساخ والطلب من الناس ٢٠٢
عَقد الغزالي كتابًا في ذمِّ حبِّ المال ٢٠٣
استدلال الغزالي على فضيلة الفقر بآيتين ٢٠٣
بُعْد الإمام الغزاليِّ عن فهم المعنى الدقيق للآيتين ٢٠٤
متى يكون المال شرًّا ؟ ٢٠٥
الغرور بالمال والبغي والطغيان به ٢٠٦
نسيان الآخرة ٢٠٦
إنفاق المال في غير محله والبخل به عن حقِّه وموضعه ٢٠٦
شُغْل المال صاحبَه عن واجب دينه ٢٠٧
المال مقياس عظمة الناس وتقديرهم في الدنيا ٢٠٧
ميزان التفاضل عند الله ٢٠٧
ماذا يطلب من الغنيِّ ذي الثروة ؟ ٢٠٧
الوصايا الخمس على لسان المؤمنين من قوم موسى لقارون ٢٠٨
كلام الغزالي في قَصْد سعادة الآخرة ٢٠٩
خامسًا : ليس من الزهد الإعراض عن الحياة الطيبة ٢١٢
الإنكار على الذين حَرَّموا على أنفسهم الطيِّبات ٢١٢
من أوصاف الرسول ﷺ الأساسيَّة عند أهل الكتاب ٢١٢
امتنان القرآن بالطيِّبات على المؤمنين ٢١٣
موقف القرآن من المسلمين الذين أرادوا تحريم الطيِّبات ٢١٣

المعاني التي وجَّه إليها القرآن ٢١٤
قيود الاستمتاع بالطيِّبات ٢١٤
موقف خصوم الإسلام من الحديث عن الحياة الطيبة ٢١٥
تخوُّف بعض المسلمين من الدعوة إلى الحياة الإسلامية الحقَّة ٢١٦
سبب هذا الوهم العريض ٢١٦
الحياة الإسلامية كما رسمها القُرآن والسُّنة ٢١٧
طبيعة الإنسان المادِّيَّة والروحيَّة ٢١٧
لاتنافي بين الحكم والحكمة ٢١٧
الإنكار على المتعجبين من بشريَّة الرسول ٢١٧
التمتُّع بالطيِّبات من مقتضى الفطرة ٢١٨
التمتُّع بطيِّبات الملبس ٢١٨
النهي عن ثياب الشهرة ٢١٩
اللباس المنهي عنه ٢٢٠
ردُّ ابن الجوزي على شُبهة المتزمِّتين من المتصوِّفة ٢٢١

الفصل العاشر
حدود الزهد في ضروريات الحياة في نظر الإمام الغزالي
(٢٢٣-٢٣٤)

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ٢٢٣
ضروريات الحياة الستة ٢٢٣
١- مهمُّ المطعم ٢٢٤
أحوال الرسول والصحابة في زهدهم في المطاعم ٢٢٥
٢- مهمُّ الملبَس ٢٢٦
أحوال النبي والصحابة في زهدهم في الملبس ٢٢٧
٣- مهم المسكن ٢٢٩
٤- مهمُّ الأثاث ٢٣١
أثاث منزل الرسول ﷺ وأصحابه ٢٣١
٥- مهم المنكح (الزواج) ٢٣٢
٦- مهم المال والجاه ٢٣٣

الفصل الحادي عشر
وقفات نقديَّة أمام الغلاة في الزهد
(٢٣٥-٢٦٥)

اجتهاد الصوفية المخلصين في طاعة الله ٢٣٥
أولاً : مصطلح الزهد والزهَّاد ليس مصطلحًا قرآنيًّا ولا نبويًّا ٢٣٦

من أوصاف المؤمنين في القرآن ٢٣٦
من صفات المتَّقين في القرآن ٢٣٧
صفات الأبرار والمحسنين ٢٣٨
صفات عباد الرحمن ٢٣٨
صفات أُولي الألباب ٢٣٩
ليس كل ما يروى عن الزُّهَّاد مقبولاً شرعًا ٢٤٠
تحذيره ﷺ من الغلوّ في الدين ٢٤١
بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي ٢٤٢
تَصدِّي ابن الجوزي للمنحرفين عن المنهج الوسط في كتابه (تلبيس إبليس) ٢٤٢
النهي عن اتباع الشهوات والإسراف في الملذات ٢٤٤
حاجة الأمة إلى التقشُّف من أجل الجهاد والأعمال الإنسانية الكبرى ٢٤٥
محاربة الإسلام للترف والنعومة والإفراط في الشِّبَع ٢٤٦
ثانيًا : زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا ٢٤٧
مواصفات الطعام الصحِّي اللازم للإنسان ٢٤٨
ضرورة المحافظة على النفس ٢٤٩
قاعدة : لا ضرر ولا ضرار ٢٤٩
اختلافات الأذواق والتَّوجُّهات ٢٥٠
ارتقاء نوع اللباس في عصرنا ٢٥٠
كل لباس فيه شهرة فهو مكروه ٢٥٠
البيوت السكنية في عصرنا ٢٥٠
العناية بالأسرة والأولاد في مسكنهم وتعليمهم ٢٥١
ثالثًا : انتقاد منهج الإمام الغزالي ٢٥٢
غلوُّ الصوفية وشطحاتهم ٢٥٢
الاستدلال بالأحاديث الواهية ٢٥٢
شروط رواية الحديث الضعيف ٢٥٣
كثرة ما أورده الغزالي من أحاديث باطلة ٢٥٣
النظريَّة الوسطيَّة عند الإمام الغزالي ٢٥٤
الوسطيَّة في رياضة الطبائع ٢٥٤
الوسطيَّة في الأخلاق ٢٥٥
أصناف الناس بالنسبة إلى الصِّراط المستقيم ٢٥٦
الاقتداء بالفرقة الناجية ٢٥٦
التوازن بين الخوف والرجاء ٢٥٧
رابعًا : الإسلام لا يعادي الحياة ٢٥٧

دعوة الرسول ﷺ إلى الحياة ٢٥٨
ابتغاء فضل الله ٢٥٩
العالم دليل على خالقه ٢٥٩
تسخير الكون لخدمة الإنسان ٢٥٩
نظرة الإسلام إلى المال والغنى وطيب الحياة ٢٦١
الحكمة من إخفاء وقت قيام الساعة ٢٦٢
عمارة الأرض حتى آخر لحظة في الحياة ٢٦٢
الصَّالحون لهم أموال وأولاد وتجارة ٢٦٢
فضيلة الطموح الموجَّه إلى الخير ٢٦٣
غلاة الصوفية لم يراعوا شأنَ الأمة ٢٦٣
مقارنة (دريبر) الأمريكي بين مدنية أوروبا ومدنية العرب ٢٦٣

الباب الثالث : زهد الخلفاء والعلماء وورعهم
(٢٦٧-٣٤٣)
الفصل الأول
زهد عمر بن الخطاب وورعه
(٢٦٩-٢٧٤)

طعام عمر ٢٦٩
تشديده على أهله ٢٦٩
ثياب عمر ٢٧٠
كلمات في الزهد والورع العمر ٢٧٠
التزيُّن للزوجة ٢٧١
إراحة المسلمين من تعبهم ٢٧١
معاملة عمر نفسه معاملةً خاصَّة ٢٧٢
الشعور بضخامة المسؤولية ٢٧٣

الفصل الثاني
زهد عليّ بن أبي طالب وورعه
(٢٧٥-٢٨٢)

تضييقه على نفسه وتوسعته على غيره ٢٧٥
موقفه من زهد عاصم بن زياد ٢٧٦
الولاة أسوة للناس ٢٧٧
شهادة معاوية وعمر بن عبد العزيز والحسن البصري ٢٧٧
من أقوال وأفعال علي في الزهد ٢٧٨
أئمة الهدى ومصابيح العلم ٢٨٠
أوصاف الزاهدين في الدنيا ٢٨١

الفصل الثالث
زهد عمر بن عبد العزيز
(٢٨٣-٢٨٥)

انشغاله بمسؤولية الخلافة عما يُحبّ ٢٨٣
عِظَم مسؤولية الحاكم ٢٨٣
إحساسه بواجبه وخشيته لربه ٢٨٤
زهده في اللباس ٢٨٤
الأمة طالبةٌ له مطلوبةٌ منه ٢٨٤
إبراهيم بن أدهم وابن المبارك ٢٨٥

الفصل الرابع
إبراهيم بن أدهم
(٢٨٧-٣١٢)

معالم زهد ابن أدهم ٢٨٧
عزمه على تغيير منهج حياته ٢٨٧
من حياة الرغد إلى حياة العمال الكادحين ٢٨٧
من كبار الزاهدين الأوائل ٢٨٨
ثناء الأئمة على إبراهيم بن أدهم ٢٨٨
كِبَرُ شأنه في الورع ٢٨٩
الزهد ثلاثة أصناف ٢٩٠
مقوِّمات الزهد عند ابن أدهم ٢٩٠
١- تحرِّي الحلال ٢٩٠
٢- الزهد في الكلام ٢٩١
الكلام على أربعة أوجه ٢٩٢
٣- التقلُّل من الدنيا ٢٩٢
رفضه هبة إخوته وتصدُّقه بها ٢٩٣
تنازله عن ميراث أبيه ٢٩٣
عدم قبول الهدايا إلا بشروط ٢٩٤
امتناعه عن الزواج ٢٩٥
شِدَّتُه على نفسه ٢٩٦
شِدَّةُ مفارقة الوطن ٢٩٦
٤- خوف الله وحساب الآخرة ٢٩٧
كيف يتمُّ الورع ؟ ٢٩٨
٥- سكينة النفس ورضاها بما قَسَم الله عز وجل ٢٩٩

رزق الله مضمون ٢٩٩
لذة عيش ابن أدهم ٢٩٩
٦- السَّخَاء والإيثار ٣٠٠
٧- خدمة إخوانه وخدمة الناس ٣٠١
اشتراطه على رفقائه الخدمة والأذان ٣٠٢
مباسطته أصحابه ٣٠٣
٨- الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين ٣٠٤
مشاركته في الجهاد ٣٠٤
جهاد الهوى ٣٠٤
شجاعته وإيثاره ٣٠٥
بعده عن الجدل والخوض في الفتن ٣٠٦
لماذا لا يستجاب الدعاء ؟ ٣٠٦
٩- الإبتعاد عن أهل السلطة ٣٠٦
١٠- حبُّ الخمول والبعد عن الشهرة ٣٠٧
من الأتقياء الأخفياء ٣٠٨
اشتغاله بالعمل عن العلم ٣٠٩
سبب تركه الحديث ٣١٠
١١- العبادة والعمل الصالح لله خالصًا ٣١١
عبادته في رمضان ٣١١

الفصل الخامس
عبد الله بن المبارك
(٣١٣-٣٤٣)

نقاط الاتفاق والاختلاف بين شخصية ابن المبارك وابن أدهم ٣١٣
إمامته في عدة مجالات ٣١٣
ترجمة الذهبي وابن كثير لابن المبارك ٣١٤
أبواب الخير عند ابن المبارك ٣١٥
منزلته بين العلماء ٣١٥
ملك غير متوَّج ٣١٨
شعر ابن المبارك ٣١٨
معالم الزهد عند ابن المبارك ٣١٩
١- تشدُّده في الورع ٣٢٠
تنازله عن بستان خصّه به أبوه دون أخواته ٣٢٠
من عجائب ورعه ٣٢١

ردُّ ما فيه شبهة أعظم من الصدقة بأضعافه ٣٢٢
منهجه في الزهد ٣٢٢
تجارته وضربه في الأرض ٣٢٣
٢- الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة ٣٢٤
٣- الاجتهاد في العبادة مع إخفائها ٣٢٦
٤- سخاؤه وتوسعته على إخوانه من أهل العلم ٣٢٧
٥- سخاؤه في الحج والجهاد ٣٢٨
٦- الحرص على الجهاد والرباط ٣٢٩
قتله ستة من العلوج وحرصه على إخفاء العمل ٣٣٠
دعوته للفضيل بن عياض للحاق به في الجهاد ٣٣١
٧- أدبه مع أصحابه وحسن تربيته لتلاميذه ٣٣١
أدبه مع حماد بن زيد ٣٣٢
في مجلس مالك بن أنس ٣٣٢
حسن تربيته وتأديبه لتلاميذه ٣٣٣
٨- الفقه في الدين وطلب العلم وبثه ٣٣٤
كتابته للعلم ٣٣٤
تفقُّهه بفقه أبي حنيفة ٣٣٥
طلب العلم الذي يعين على فهم القرآن ٣٣٦
الجمع بين الأثر والرأي ٣٣٦
مذهبه في الحديث ٣٣٦
اعتماده على الكتابة أكثر من اعتماده على الحفظ ٣٣٧
إنكاره التدليس في الحديث ٣٣٧
في صحيح الحديث شغل عن سقيمه ٣٣٨
فقهه للأولويات ٣٣٨
إيثاره للخلوة والخمول ٣٣٩
مجالسة الصحابة والتابعين أولى من الجلوس مع الناس ٣٣٩
٩- اعتزاله أصحاب البدع ورجال السلطان ٣٤٠
زجره عن أخذ الأموال من الأمراء ٣٤٣
امتناعه عن لقاء الرشيد ٣٤٣
الخاتمة ٣٤٤
الفهرس ٣٥٣